أبو الطيب المتنبي

الهلال



الجزء العاشر ـ السنة ٤٣

اول اغسطس سنة ١٩٣٥ ـ ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤



شخصية المتنبّي في شعره

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

« .. فهو حيث قلبت من حكمته او فخره او غزله او رثائه ، هو هو المعتد بفضله ، الفاشل في امله ، الساخط على زمنه .. »

شخصية المتنبي التي نعرفها في شعره هي شخصيته التي نعرفها من تاريخه وتاريخ عصره

وقد كان عصره عصر مغامرات ودعاوى سياسية ودعاوى دينية وخصومات مذهبية وشكوك جاءت من التفكير والاطلاع ، وشكوك جاءت من اللجاجة في المناقشة والحوار . وكان أناس من طلاب المناصب يرتقون في ذلك العصر كما ارتقوا في العصور التي قبله إلى مناصب الوزارة وليست لهم من شفاعة في الظاهر غير شفاعة الكتابة والأدب . فكان في العصر ما يغرى الأديب المغامر بالتطلع إلى جاه الدنيا من طريق المغامرة ، ومن طريق البراعة الأدبية . وكان المتنبي رجلا لا يعوزه الاعتداد بالنفس ولا الطمع في الجاه ولا ملكة البلاغة والقدرة على المنظوم والمنثور مع شيء من الفروسية كما ثبت من مجمل تاريخه ومجمل كلامه . فالشعر الذي نقرأه في الديوان لا يستغرب من الشاعر الذي نظمه ولا من الرجل الذي علمنا بسيرته من أنباء الراوين عنه ، و « شخصيته » ماثلة هنا وهناك على صورة واحدة جلية متفقة لا تعقيد فيها ولا تنافر بين القول والحقيقة

وقد غلبت هذه الشخصية حتى لا تشابه بينها و بين شاعر آخر في باب من الأبواب ولو تشابه العنوان والموضوع

فالمتنبي متشائم ، والمعري متشائم ، ولكن الفرق بين المذهبين في التشاؤم كالفرق بين شخص المتنبي وشخص المعرى في المزاج والخليقة والمطلب ، وهو دليل على صدق الشخصية الشعرية عند كل من الشاعرين الكبيرين

فالمعرى متشائم لأنه حكيم يتدبر أحوال الخلق ويرثي لما هم فيه من الجهالة والشقاء لغير مأرب يريده إلا التأمل والحكمة

والمتنبي متشائم لأنهُ صاحب رجاء خاب في الناس على غير انتظار ، ولو لم يخب هذا الرجاء لما كان من المتشائمين

والمعري ينظر الى الناس في جميع الازمان والاجيال لانه يطلب المعرفة والعلم بالنفس الانسانية

والمتنبي ينظر الى الناس في عصره ولا يعمم الحكم على الناس جميعاً إلا لما أصابه من زمانه وأهل زمانه ، وذلك هو الفرق بين من يدرس الانسان لتحقيق بحث ومن يدرس الانسان لتحقيق أمل ، أو ذلك هو الفرق بين الحكيمين المتشائمين والمذهبين المتباعدين جد التباعد على تقارب الكلمات والأسماء

ولهذا يقول المعرى :

كم وعظ الواعظون منا وقام في الأرض أنبياء
وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤك العياء
حكم جرى للمليك فينا ونحن «في الاصل» أغبياء

أى نحن « بني الانسان » أجمعين ، وهو منهم ، كما صرح في موضع آخر حيث قال :

كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

أو قال :

بني الدهر مهلا ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لا محالة ابدأ

أما المتنبي فمعظم تشاؤمه — بل تشاؤمه كله في جوهره — من قبيل قوله :

أود من الأيام ما لا توده وأشكو اليها بيننا وهى جنده

أو من قبيل قوله :

أريد من زمني «ذا» أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

أو قوله :

وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق تخطي إذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلداً إلا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا اعاشر من أملاكهم ملكا إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسى فيهم ، وأنى

أو قوله :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الامم

أتى الزمان بنــوه في شـبيبته فسرهم وأتينــاه على الهرم

أو قوله :

ومن عرف « الايام » معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فهو يتشاءم لعلة عارضة وهى أن زمانه وأهل زمانه لا ينيلونه ما ينشده من الجاه . ومن هنا كان الذنب عنده ذنب جيله ولا شأن له فيه . أما المعري فكان أصيلا في تشاؤمه لا يعيب أبناء جيله خاصة إلا لأنهم جزء من الناس أجمعين منذ كان آدم الى أبد الآبدين . ولعل المتنبي لو نظر الى الانسان هذه النظرة لخرج من التشاؤم الى التفاؤل ، لأن رجاءه أن ينـال على أيديهم ما ناله أمثاله ومن هم دونه في اعتقاده ، دليل على أنه يرى الشأن فيهم أن يعدلوا ويعترفوا بالفضل ويعطوا ذا الحق حقه ، ولو كان متشائماً بطبعه لما عجب لفساد طباعهم وحاجة المرء بينهم الى الدس والخداع والحيلة وإرضاء اللبانات والشهوات ، وما من رجل يعتقد أنه صاحب حق ويعجب لفواته إلا وهو أقرب الى التفاؤل منه الى التشاؤم .

* * *

وهذه الشخصية ظاهرة في شعر المتنبي كله ظهورها في حكمته وتشاؤمه ، ونعني بها شخصية الطامع المغامر المعتد بنفسه : فهو يتغزل كما يفخر ويصف كما يشكو أو يتهكم ، وأعجب من هذا أنه يمدح أبطاله على هذا النحو ، فيقول وهو فى معرض العتاب والاسترضاء لسيف الدولة :

سـيعلم الجمع ممن ضم مجلسـنا بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبي وأسمعت كلماتى من به صمم

الى ان يقول :

الخيـل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والعادة فى المدح ــ بله الاسترضاء ــ ان يتضاءل المادح ليرفع من قدر الممدوح ، ولكن « لكل امرىء من دهره ما تعود » كما قال

ويرى بعض الناقدين تناقضا بين طموح المتنبي وتعاظمه وبين طلب النوال من الامراء والبخل الشديد الذى شاع عنه ، ولا تناقض بين الحالتين كما قد يلوح لنا الآن ، لأن نوال الامراء كان حقاً للشاعر في ذلك العصر لولاه لما استطاع الشعراء الحياة ، ومع هـذا لم يكن المتنبي يبتذل حقه في مواقف المدح ولم ينزل الى مدح كل طامع في قصيده ، ولا رضى لنفسه مع الذين ارتضاهم لمديحه مقاماً دون مقام الحفاوة والكرامة ، فينشدهم الشـعر وهو جالس أو

يقف لديهم وقفة التجلة والمهابة . ومنهم من كان يتخلى له عن مكانه ويجلس بين يديه في مقام المادح من الممدوح ، ومع هذا وذاك لم ينس غضاضة النوال ولم يسكن الى دوام هذه الحال ، لأنه يريد أن يكون مشكوراً لا شاكرا لذوى الدسوت والأموال :

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص　　على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ولا يغيبن عنا أن الانسان لن ينكر على نفسه طلب الجاه اذا علم فيها عيباً من العيوب ، لانه يحابيها ويلتمس لها المعاذير ولا يحاسبها كما يحاسبها خصومه أو أصدقاؤه . فاذا فرضنا أن المتنبي كان بخيلا فليس من اللازم أن يعترف بالبخل على نفسه ، واذا فرضنا أنه اعترف عليها بهذه الخلة فليس من اللازم أن يلومها ولا يجتهد في تمحل أعذارها ، واذا فرضنا أنه لامها فليس من اللازم ولا من المعقول أن يعاديها ولا يتمنى لها ما يتمناه المحب لحبيبه فضلا عن نفسه ، ولا سيما حين يقارن بينه و بين من بلغوا المجد والامارة ، فيرى فيهم عيوباً شراً من عيوبه . وقد يتخذ الرجل من الطموح الى المجد عذرا لاقتناء المال كما قال :

ولا ينحلل في المجد مالك كله　　فينحل مجد كان بالمال عقده

فالبخل والفخر لا يتناقضان ، بل لا يتناقض البخل وعلو الهمة والمغامرة لما هو معروف من اشتهار كثير من عظماء الدول بالتقتير الشديد الذى يخرج عن حد التدبير ، وأن حيلة النفوس في تمليق أصحابها لتجعل العظمة عذرا للنقيصة وتسوغ البخل كأنه ضرورة لا محيص عنها لنجاح المغامر الطموح فيما يتمناه

***

ولقد سرت شخصية المتنبي فى ألفاظه وعباراته فضلا عن افكاره ومعانيه . فالولع بالتصغير الذي لوحظ عليه هو عندنا من لوازم مزاجه المتكبر المغيظ من فوات رجائه ، وا كثر ما يصغر المتنبي — كما لاحظنا فى بعض فصولنا — حين يهجو مغيظا أو يستخف متعاليا كما قال فى كافور :

أولى اللئام « كويفير » بمعذرة　　في كل لؤم و بعض العذر تفنيد

أو كما قال فيه :

نويبية لم تدر أن بنيها النو　　بي دون الله يعبد فى مصرا

أو كما قال في الشعراء الذين يزاحمونه :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

وكل تصغيره من هذا القبيل هو تصغير من يضيق صبره بالسخط والانفة والكبرياء فيعاف أن يذكر الأشياء والناس إلا بأهون ما يستطيع في صيغة لفظه بعد التهوين فى مدلول هجائه ومعناه

* * *

ولولا أننا لا نريد أن نكرر ما أسلفناه فى غير هذا المقال لاكثرنا من الشواهد على المطابقة بين شخصيته وكلامه من غزله ووصفه وأمثاله ، ولكن الاشارة هنا تغني في المراجعة ، وما على القارىء إلا أن يتناول ديوان المتنبي ويفتحه على ما شاء من صفحة أو بيت فلن يجد بيتاً واحداً يستغرب به من تلك الشخصية كما عرفناها في تاريخه وفي جملة كلامه ، فهو حيث قلبت من حكمته أو فخره أو غزله أو رثائه هو هو المغامر المعتد بفضله الفاشل في أمله الساخط على زمنه الذى لا ينسى شأنه، حتى حين يعزى المحزون فى مصابه . وما ظنك برجل يعزى محزوناً في فقيد فيقول له :

لا يحزن الله الأمير فانني لآخذ من حالاته بنصيب

بل ما ظنك برجل ينطق حصانه كما قال :

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار الى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

لكأنما كان حصان المتنبي حصاناً متنبياً يخاطب أبناء آدم مدلا بالحيوانية ناظراً اليهم نظرة الحكيم الى الحمقى والعليم الى الجهلاء ؟

أفيستطيع هذا الرجل أن ينسى نفسه أو يخفى « شخصيته » أو يكون غير ما كان أو يقول غير ما قال ؟

إن الناقدين لا يوجبون على الشاعر أن يكون انساناً خيرا مما هو لتتم له ملكة الشاعرية ولكنهم يوجبون عليه أن يكون شعره ترجمان « انسانه » وصورة حياته ، وهكذا كان المتنبي الشاعر حيث عمل وحيث قال . فاحبب ما شئت من خلائقه وابغض ما شئت منها . ولكن بعد أن تلقى ميزان الشعر وتأخذ بميزان الشريعة أو ميزان يوم القيامة !

عباس محمود العقاد



أبو الطيب المتنبي

سطور من صفحات حياته

* « ابو الطيب المتنبي » احمد بن الحسين . ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة في محلة تدعى كندة
* وقع فى صباه تحت تأثير الشيعة والزيدية ، فأثر ذلك فى عقيدته
* فر سنة ٣١٢ من وجه القرامطة الذين استولوا على الكوفة
* عاد للكوفة سنة ٣١٥ واتصل بأبي الفضل الكوفي الذي اعتنق مذهب القرامطة
* قدم الشام في صباه ، وتنقل بين باديتها وحاضرتها
* حفظ كثيراً من فصيح اللغة وغريبها وأشعار الجاهلية واعتنق فلسفة رواقية متشائمة
* أولع بالسيادة وهو فتى فثار ودعا الى بيعته قوماً من مريديه
* قبض عليه والى البلدة ، وسجنه حتى لا ينتشر أمره ، ثم أطلقه
* أعجب الناس بشعره وفصاحته فساوره حب السيادة أيضاً ولم يقنع بالشهرة الادبية
* خرج الى بني كلب ، وادعى أنه علوى ، فتبعه خلق كثير
* شاع أمره ، فقصده لؤلؤة أمير حمص من قبل الاخشيد فقاتله وأسره
* مكث في السجن سنتين حتى تعهد بألا يعود الى دعوته ، فأطلق سراحه
* التحق بسيف الدولة بن حمدان سنة ٣٣٧ فمدحه وحضر معه وقائعه العظيمة
* خذله سيف الدولة في حادثة ابن خالويه النحوى فانصرف عنه
* قدم مصر سنة ٣٤٦ ومدح كافوراً الاخشيدى فوعده بولاية
* مكث أربع سنوات في مصر طامعاً في هذه الولاية
* لم يف كافور بوعده ، فغادره هاجياً له وللمصريين
* نزل بلاد فارس بعد مصر ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمى ، وابن العميد
* عادَ من بلاد فارس قاصداً بغداد فالكوفة
* عرض له فاتك بن الجهل الاسدى في جملة من أصحابه وكان المتنبي قد هجا اخته
* تغلب فاتك ، وقتل ابو الطيب سنة ٣٥٤ وتناثر ديوانه الذى خطه بيده

بعد ألف عام
سر الاحتفال بالمتنبي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

يعنى عالم اللغة العربية هـذا العام باقامة حفلات لمناسبة انقضـاء الف عام على وفاة أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي . أقيمت أولى هذه الحفلات بدار الجامعة الأمريكية ببيروت في اليوم الثانى من شهر يونيو سنة ١٩٣٥ بناء على دعوة جمعية العروة الوثقى بالجامعة المذكورة . وهذه الجمعية تضم الشباب الذى يتكلم العربية من المنتسبين الى الجامعة المذكورة . و ينتظر أن تقام حفلات لهذه المناسبة بحلب في أغسطس سنة ١٩٣٥ . وطبيعى أن تذكر حلب الشاعر الذى خلد ذكرها وخلد أميرها سيف الدولة بمدائحه العظيمـة . وربما أقيمت حفـلة أخرى ببغداد وحفلة رابعة بالقاهرة . فقد أقام المتنبي بمصر زمناً مدح فيه كافوراً الاخشيدى طمعاً فى أن يوليه ولاية يجلس على عرشها مجلس سيف الدولة على عرش حلب . وانقلب المتنبي عن مصر حين أخلفه كافور وعده فذهب إلى بغداد ثم إلى شيراز حيث مدح عضد الدولة . فلا عجب أن أقامت مصر و بغداد حفلات كالتى أقامتها بيروت والتي تقيمها حلب تذكر بها هذا الشاعر العربي الذى ملأ الدنيا دوياً منذ حياته . ولا عجب أن يتحدث أبناء اللغة العربية عن شاعر ترك للغة العربية ميراثاً عظيماً

على أن من حق كل إنسـان أن يسأل : أفتقام حفلات المتنبي هـذه في الشام والعراق ومصر تقديراً للأثر الشعري الذى تركه المتنبي في الحيـاة ؟ أم هى تقام تقليـداً للحفلات التى أقيمت لمناسبة انقضاء الف عام على شاعر الفرس الفردوسى ـ هذه الحفلات التي أقيمت في فارس وفي لندن وفي كل مكان به من المستشرقين من يعنى بشاهنامة الفردوسي و يعجب بها . وهل تقام حفلات المتنبي هذه إعجاباً بشعر المتنبي وفنه فيه ؟ أم تدفع إلى إقامتها اعتبارات ليس الفن وليس الشعر أقواها في حفز النفوس إلى إقامتها ؟ وما هي هذه الدوافع التى تجد فى شعر المتنبي ما يشجعها على الظهور للاحتفاء بشاعر من شعراء العربية اتصلت الخصومة فى شـأن شعره ومبلغ مايسمو اليه من مراقي الفن ومايهبط اليه من دركاته منذ حياته إلى عصرنا الحاضر،

بينا من شعراء العربيـة من انقضى على وفاتهم أكثر من الف عام فلم يفكر أحد في الاحتفاء بهم مع أن ما خلفوا من التراث الشعرى لا يقل روعة وجلالا عما خلف المتنبي ؟

أما أن الاحتفال بانقضاء الف عام على المتنبي إنما هو مجرد تقليد الاحتفال بالفردوسى فذلك مالا يصدقه الواقع . فالتفكير فى المتنبي والاحتفال بانقضاء الف سنة على وفاته تفكير قديم يرجع الى عدة أعوام . والاحتفال بانقضاء الف عام على منشئات أو رجال تركوا على الزمان أثراً ، هو اليوم بعض ما يجول بالخواطر . وها نحن أولاء عما قريب سنشهد الاحتفال باليوبيل الالفى للازهر . وسواء أكانت هذه الفكرة قد نبتت أول ما نبتت للاحتفال بالازهر أو بالمتنبي أو بالفردوسى فهى فكرة طبيعية أجدر بأن تساور النفوس من الاحتفاء باليوبيل الفضى أو باليوبيل الذهبي لحى من الاحياء أو عمل من الاعمال ، وأجدر بأن تساور النفوس من الاحتفال بانقضاء مائة عام على مولد عظيم من العظماء أو على وفاته. فالعظيم الذى صمدت عظمته للزمان الف سنة تباعاً جدير حقاً بأن يذكر وبأن تخلد ذكراه . وهو كذلك ما مست هذه الذكرى نفوس الاحياء على نحو يثير فيها عواطف تحدث بها هـذا العظيم وخلدها على الدهر

وهذا هو في رأينا سر الاحتفاء بالمتنبي دون غيره من شعراء العرب الذين انقضى على وفاتهم الف عام. فليس ريب فى أن من هؤلاء الشعراء من يضارع المتنبى قوة ومن يفوقه رقة ومن يعلو فنه على فن المتنبي علواً كبيراً . وكثيرون من الضليعين فى الشعر وفنونه يفضلون أبانواس على المتنبي في سمو خياله ورقة تعبيره وحلاوة أسلوبه وعذوبته الموسيقية في شعره . ومن الناس من يفضل ابن الرومى على المتنبي . لكن هؤلاء جميعا لا يعبر شعرهم عما يجول بخواطر الذين يتكلمون بالعربية اليوم كما يعبر عنها المتنبي. هؤلاء يصفون الطبيعة ويصفون الحياة ويصورون متعها ويستشفون حكمتها من خلال هذه المتع . وهذا كله لا يتصل بعاطفة الذين يتكلمون العربية من أبناء اليوم . إنما يتصل بعاطفتهم هذا الالم لفقد حريتهم ولضياع استقلال بلادهم . ويتصل بعاطفتهم هذا الاعتزاز بالنفس اعتزازاً هو السـبيل لاقتناص الحرية من جديد ولتحقيق استقلال البلاد العربية المختلفة . ولم يعبر أحد عن هذه المعاني بمثل ما عبر المتنبي من قوة . ولم يكن عصر اضطربت فيه امور البلاد العربية اضطرابا يكاد يشبه ما هو حادث اليوم كعصر المتنبي . فلا غرو أن استفز شعر المتنبي همة الشباب . ولا عجب أن سارع الشباب الذي يتكلم العربية للاحتفاء بذكرى المتنبي بمناسبة انقضاء الف عام على وفاته

وكيف لا يستفز الشباب مثل قوله :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيـ ... ـظ وأشفى لغـل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد ... وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذ ... ل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعـ ... ـجز عن قطع بخنق المولود
ويوقى الفتى المخش وقد خو ... ض في ماء لبة الصنديد

وكيف لا يستفز الشباب في وقتنا الحاضر قوله :

من أطاق التماس شيء غلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وهذا المعنى كثير الورود في شعر أبي الطيب . ويقترن به من تصوير البطولة وحب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة ما يهز عواطف هؤلاء الذين تفتحت عيونهم على الحياة فألفوا بلادهم مهيضة الجناح خاضعة للنير الاجنبي خضوعا يسلبها عزتها وكرامتها . والشباب ولوع بالقول الفخم وما يدل عليه من طموح الى العلياء ،وهو أشد بالقول الفخم ولوعا كلما حالت الحوائل بينه وبين العمل الايجابى المثمر الذى يحقق غاياته . فهو يجد في هذا القول عزاء عن حرمانه من أسباب العزة والانفة ، وحافزاً الى التماس هذه الاسباب ومذكراً بها . والذكرى نافعة أبدا . وكلما بعدت هذه الذكرى في أطواء الماضى كانت افعل في النفوس أثرا . فاذا تغنى أجدادنا من الف سنة بمعنى من المعاني وقصرنا نحن دون إدراكه فعار علينا إذا لم نحمل على انفسنا ولم نبذل غاية جهدنا لتحقيقه . فان بلغنا الغاية من قصدنا فذاك . وان لم نبلغها فلنا من العذر أن حالت الاقدار بيننا وبين ما نريد

هذا هو الدافع الاقوى لاحتفاء ابناء العربية اليوم بمرور الف عام على وفاة المتنبي ، وهو كما ترى حافز نبيل غاية النبل . ويتصل به حافز من نوعه ليس أقل منه نبلا . فقد نسيت هذه البلاد التى تتكلم العربية في عصورها الاخيرة تراثها العظيم واتجهت بكل جهودها الى ناحية الغرب تلتمس منه أسباب الرقى من العلم والادب والفن . وبلغت من ذلك حتى خيل الى أبنائها أن ما كان لها من علم وأدب وفن لم يعد صالحا للحياة فى هذا العصر ، بل لم يعد صالحا لان يكون أساس بعث واحياء كما كانت الآداب اليونانية والفلسفة اليونانية أساس

البعث والاحياء في الغرب من اربع قرون خلت . فاذا كان شاعرنا المتنبي لايقف عند الاشادة بمبادىء العزة والكرامة والحرية بل يضرب بيده في أحشاء الحياة يلتمس حكمتها فتخرج يده مملوءة من حكمة الحياة الخالدة التي لا تفنى وان تقادمت الدهور ، كان ذلك دليلا على ان لنا من هذا التراث العظيم في الفن والادب ما ينهض أساساً لبعث البلاد العربية كي تقف جنبا الى جنب مع الغرب دون أن تكون عالة عليه مقلدة إياه فيما يثمر من فن وعلم وأدب . والحق أن المتنبي قد غاص في لج بحر الحياة فاستخرج منه درر الحكمة الخالدة التي لا تبلى . وهو قد جلا هذه الحكمة في فن قوى غاية القوة . استمع اليه إذ يقول :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

وإذ يقول :

يهون علينا أن تصاب جسومنا   وتسلم أعراض لنا وعقول

وإذ يقول :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وغير هذه من الحكم التي جرت مجرى الامثال كثير جمعه الذين درسوا أبا الطيب وشعره . والناس مشوقون للحكمة يلتمسونها في الامثال وفي الشعر وفي كل كلام جميل حسن المدخل الى النفس . فالحكمة رحيق تجاريب الأجيال والميراث الذي يخلفه الناس بعضهم لبعض جيلا بعد جيل

واعتبار ثالث قام بنفس كثيرين ممن احتفوا بأبي الطيب . ذلك الاعتبار هو الفكرة العربية في صورتها المقبولة الممكنة . فالفكرة العربية تجول بخواطر البعض على أنها الوحدة السياسية للذين يتكلمون اللغة العربية ، والذين كانوا الى ما قبل الحرب يستظلون بعلم الدولة العثمانية والخلافة الاسلامية . والوحدة السياسية لطائفة من الامم تجمعها جامعة ليست بدعاً . مثلها مثل الوحدة السياسية للأمم المتجاورة تجمعها جامعة الجنس أو الدين . على أن هذه الوحدة غير ميسورة في ظروف العالم اليوم . ولا يدرى أحد إن أمكن تحقيقها في الاجيال القريبة . لكن جامعة اللغة تخلق من غير شك اتصالا في الثقافة قد يصل مع الزمن الى وحدة هذه الثقافة . وهو من غير شك يقرب بين الامم التي تتكلم اللغة الواحدة ويقوى

عناصر الثقافة المشتركة بينها بتشابك العناصر التي تشترك في إحياء هذه الثقافة وفي توجيهها والاضافة اليها إضافة تصل بين ماضيها وحاضرها بأوثق الصلات

ولقد بدا هذا الاعتبار الثالث واضحاً أشد الوضوح في الاحتفال الالفي الذي أقامته جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية للمتنبي . كانت العربية والعروبة انشودة ذلك المجتمع والاغنية الجارية فيه على كل لسان . ولا عجب والفكرة العربية تتحرك اليوم في نفوس أبناء سوريا ولبنان وفلسطين بأقوى مما تتحرك في نفوس غيرهم من الناحية السياسية . ولا عجب والاحياء للتراث العربي فكرة تجول بخواطر الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً فيما عدا أولئك الذين يريدون أن يغفلوا ماضيهم وان يقلدوا الغرب وحضارته وفنونه وآدابه تقليدا ينسى أبناء هذه الامم أنها ذات ماض مجيد وأنها أظلت العالم بحضارتها عصورا مديدة، وبخير مما تظل حضارة أوربا العالم اليوم به . هؤلاء لا رجاء في نجاح فكرتهم وان استندت الى القوى الحاكمة في الشرق اليوم . ومهما يكن الاتصال بين أمم العالم أمرا محتوما لا مفر منه ، حتى لا معدى للشرق اليوم ان يأخذ كثيرا عن الغرب، فالاتصال بين ماضي الامم وحاضرها أمر محتوم هو الآخر لا مفر منه . وذلك هو ما جعل الاحتفاء بالمتنبي وما يجعل كل عمل يقصد به الى احياء ماضينا على أية صورة من صور الاحياء يقابل بالاكبار والتأييد

محمد حسين هيكل

---

* لما جاء ابن جني في شرحه ديوان أبي الطيب الى قوله في ممدوحه :

قد شرف الله أرضا انت ساكنها ... وشرف الناس إذ سواك إنسانا

قال : لا يعجبني قوله سواك لانه لا يليق بشرف الفاظه . ولو قال « أنشاك » لكان أليق — قال العروضي : سبحان الله أتليق هذه اللفظة بشرف القرآن ، ولا تليق بلفظ المتنبي ؟ قال تعالى : « الذي خلق فسوى » وقال : « فسواك فعدلك » وقال : « ثم سواك رجلا » . قال ابن فرجة : « قرأت على أبي العلاء ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب . فقلت له يوما في كلمة : ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى اوردتها ، فأبان لي عوارها . ثم قال : « لا تظن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب ان كنت مرتاباً . وهأنذا أجرب ذلك منذ زمن فلم اعثر بكلمة لو ابدلتها باخرى كانت اليق بمكانها . وليجرب من لم يصدق يجد الامر على ما أقول » ! ...

في ذكرى المتنبي

من شاعر الى شاعر

بقلم الاستاذ احمد محرم

أنظر إلى الدنيا عليك ترفرف / واسمع شعوبك فى الممالك تهتف
ضجوا بذكرك ، فالقياصر خشع / بين المواكب ، والأرائك رجف
تقف العواصف دون عرشك ركداً / والدهر يرمي بالعروش ويعصف
ويظل تاجك ماله من خاطف / والناس والتيجان حولك تخطف
ملك البيان إليك فوض أمره / فاحكم فأنت المالك المتصرف
تعب الخلود وما تعبت وإنني / لأرى الخلود يضيق عنك ويضعف
أنت ابتدعت الشعر ، ما لجديده / مثل يعد ، ولا طراز يعرف
تلقى على المعنى المحجب نظرة / فاذا الروائع وضح تتكشف
الحكمة الغراء حف جلالها / سور عليه من البراعة زخرف
والمدح يستهوى الرجال ، فمحجم / يلقى الفوارس ، أو بخيل يسرف
والوصف تشربه النفوس وتنتشى / من حسنه الاشياء ساعة توصف
والفخر يأنف أن تقيم بمنزل / حتى يكون لك المقام الأشرف
شعر نظمت به الجمال مصوراً / والنفس تولع بالجمال وتشغف
أبقى « لسيف الدولة » الشرف الذى / ترك السيوف مشوقة تتشوف

شرف تخلّفَ بعده، فكأنه ... باقٍ على طولِ المدَى متخلف
نجّاه من غولِ الفناء، فهذه ... دنياهُ مونقة ترف وتنطف
إنزل بساحته، فتلك ثمارها ... تجنى بأيدى الرّاغبينَ وتقطف
الملك أفيح، والجنود مغيرة ... والخيل تصهل، والقواضب ترْعف
والفتح غادٍ في اللواء ورائح ... لا أنتَ تخطئه، ولا هو يخلف
لمّا رضيت عن «السوّاد» جعلته ... نوراً يغار النّور منه فيكسف
ولقد رأيتك غاضباً فاذا الدّجى ... متبرّم بسوادِهِ مستنكف
«كافور» من حنق عليك وإحنة ... يهذى بذكرك ناقماً يتأفف
أوردته العذب الفرات، فما ارتوى ... حتى أحاط به الاجاج المتلف
لم ترض يوماً في حياتك موقفاً ... يعلوه في الدّنيا لغيرك موقف
«الابيض الطّماح» لم تحفلْ به ... لما رمى[1] و«الاسود المتعسّف»
كنت العزيز الحر يكرم نفسه ... ويعاف منزلة الذليل ويأنف
رمت «الولاية» بالقريض، وإنه ... لك في النفوس ولاية ما تصرف
«المضحكات بمصر»[2] حيث رأيتها ... وأرى «الثعالب»[3] مثل عهدك ترحف
نظمت بدائعك المواكب فخمة ... ومشت تغنى في البلاد وتعزف
اليوم تنصفك الدّهور ومالنا ... غير الدّهور لدى الحكومة منصب

احمد محرم

---

(١) المراد به سيف الدولة ورميه بالدواة في وجه المتنبي وهو ينشده قصيدته: «واحر قلباه ممن قلبه شبم»

(٢) اشارة الى قوله: «وكم ذا بمصر من المضحكات» البيت:

(٣) اشارة الى قوله من قصيدة في كافور: «نامت نواطير مصر عن ثعالبها» البيت

فلسفة أبي الطيب

هل كان المتنبي فيلسوفاً ؟

بقلم الاستاذ احمد امين

يخطىء من يظن ان لأبي الطيب فلسفة تشمل العالم ، وتحل مشاكل الكون ، فتلك بالفيلسوف أشبه ، وربما قارب هذه المنزلة أبو العلاء لا ابو الطيب ، فلئن كان ابو العلاء فيلسوفاً يتشاعر فان أبا الطيب شاعر يتفلسف ، انما لأبي الطيب خطرات في الحياة من هنا ومن هنا لا يجمعها جامعة إلا نفس أبي الطيب والمحيط الذي يسبح فيه ويتشرب منه

كذلك يخطىء من ظن أن أبا الطيب عمد الى ما أثر من الحكم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفة اليونان ، فأخذها ونظمها ، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شعراً ، كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبي وأفرطوا في اتهامه ، فأخذوا يبحثون في كل حكمة نطق بها ويردونها الى قائلها من هؤلاء الفلاسفة . فلسنا نرى هذا الرأي ، فان كان قد وصل الى أبي الطيب قليل من حكم اليونان ونظمها فان اكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه لا الفلسفة اليونانية وحكمها ، ذلك لأن الحكم ليست وقفاً على الفلاسفة ولا على من تبحروا في العلوم والمعارف ، انما هي قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة ، ونحن نرى فيما بيننا ان بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الامثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر ، وهذا الذي بين ايدينا من أمثال انما هو من نتاج عامة الشعب اكثر مما هو من نتاج الفلاسفة ، وكلنا رأى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ في كتاب أو تخط بيمينها حرفاً تنطق بالحكمة تلو الحكمة ، فيقف أمامها الفيلسوف حائراً دهشاً يعجز عن مثلها ويحار في تفسيرها ، ومرجع ذلك الى ينبوعين وهما التجربة والالهام ، فاذا اجتمعا في امرىء تفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم ويتفلسف ، فكيف اذا اجتمعا لامرىء كأبي الطيب مليء قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة ؟ فنحن اذا التمسنا له مثالا في حكمه فلسنا نجده في أفلاطون وأرسطو وأبيقور ، وانما نجده في زهير بن أبي سلمى وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه وأوحى اليها إلهامه ، كما نجده في شعر أبي العتاهيــة وقد ملأ عالمه حكما وأمثالا خالدة على الدهر . وكل ما بين أبي الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع الى أشياء : المحيط الذي يحيط بكل شاعر ، وقدرة نفس الشاعر على تشرب محيطه ، والقدرة البيانية على أداء مشاعره . لقد ألم زهير من الحرب ورأى ويلاتها

فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها ، وفشل ابو العتاهية فى الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فملأ به ديوانه ، وكان لأبى الطيب موقف غير هذين فاختلفت حكمه عنهما وان نبعت من منبعهما ، كما سنبينه

ودليلنا على ذلك ان أبا الطيب ـ فيما نعلم ـ لم يثقف ثقافة فلسفية انما تثقف ثقافة عربية خالصة ، قرأ بعض دواوين الشعراء ولقى كثيراً من علماء الأدب واللغة كالزجاج وابن السراج والأخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها

وما لنا ولهذا كله ، فاننا لو رجعنا الى حكمه لوجدناها منطبقة تمام الانطباق على محيطه ونفسه ليس فيها أثر من تقليد ولا شية من تصنع ، فهو ينظم ما يجول فى نفسه وما دلته عليه تجاربه لا ما نقل اليه من حكم غيره إلا فى القليل النادر

ونحن اذا أردنا أن نجمل نفسه ومحيطه قلنا : انه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية ، تعرفه الخيل والليل والبيداء ، ويحب الحرب والنزال ، ويشتهى الطعن والقتال . قيل له وهو فى المكتب ما أحسن وفرتك ؟ فقال :

لا تحسن الوفرة (١) حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة   يعلها من كل وافى السبال

كما نشأ طموحاً الى أقصى حد فى الطموح ، يعتد بنفسه كل الاعتداد ، ولا يرى له فى الوجود نداً ولا مثيلا . قال فى صباه :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه   فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

قومه من خير العرب بيتاً ومع هذا يجب أن يعتز قومه به لا أن يعتز هو بقومه وبيته :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضا   د وعوذ الجانى وغوث الطريد

الى جانب هذا الاعتزاز بالنفس استصغار للناس ونفوسهم وشؤونهم :

ودهر ناسه ناس صغار   وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام

امتلأت نفسه بهذه العقيدة حتى فى صباه فوضع لنفسه هذا المنطق الساذج البسيط : « إذا كنت خير الناس فلم لا أكون نبيهم أو على الأقل ملكهم » فبدأ ينفذ برنامجه فى سهولة ويسر ظانا وهو فتى غرير ـ ان الدنيا تحكم بمثل هذا المنطق البسيط . ولم يعلم بعد ان منطق الدنيا أعقد من هذا بل ان الملك منطق يحكم الدنيا اكثر مما يحكمها المنطق . نعم انه سيلاقى فى هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس فهو مسلح بكل ما يحتاج اليه ذلك من سلاح :

(١) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس

أى محل أرتقى ؟ أى عظيم أتقى ؟
وكل ما خلق اللـــه وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

ولـكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً ان الزمان اكبر من همته ، وانه لا يكفى أن يكون خير الناس ليكون نبى الناس أو ملك الناس . ومن أجل هذا تدرجت مطامحه وأخذت فى النقصان فقد بدأ يطلب النبوة ، فلما فشل فيها بدأ يطلب الملك فلما فشل فيه بدأ يطلب ولاية أو اقليما فى مصر ففشل فى ذلك ايضاً ، فأخذ يعتب على الزمان ويذمه ويلعنه

بدأ النبوة فقال :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام «المسيح» بين اليهود
أناترب الندى ورب القوافى وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب «كصالح» فى ثمود

ثم صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة الى طلب الملك فأخذ فى شعره يحقر ملوك زمانه ويقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلا عليـه وله عليهم كل الفضل . ويضع خطة ان العرب يجب أن يحكمها العرب لا العجم فيقول :

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

ويقول :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

إذن يجب أن يكون الملوك من العرب وإذن فليكن هو ملكا وقد طوف بالبـلاد يتلمس السبيل لتحقيق مآربه ونيل مطلبه ويقول فى ذلك تلميحاً لا تصريحاً :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى
اذا قل عزمى عن مدى خوف بعده فأبعد شىء ممكن لم يجد عزما
وإنى لمن قوم كأن نفوسهم بهـا أنف أن تسكن اللحم والعظما

ثم رأى ان الزمان لا يسعفه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل فرحل الى مصر وطلب من كافور أن ينيله ولاية فأغدق عليه ذهباً فقال :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولـكنها فى مفخر أستجده

وقال:

فارم بى ما أردت منى فانى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

ثم صرح بعد الكناية فقال :

اذا لم تنط بى ضيعة او ولاية　　لجودك يكسونى وشغلك يسلب

حتى ولا هذه استطاع أن ينالها وصدمته الحقيقة فاعترف بانه « يود من الايام ما لا توده» وقد كان فى صباه يقول :

ولو برز الزمان إلى شخصاً　　لخضب شعر مفرقه حسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى　　ولا سارت وفى يدها زمامى
اذا امتلأت عيون الخيل منى　　فويل فى التيقظ والمنام

عذبته الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك ، وهمته همة ملك ، وشعره ملك الشعر أو على الأقل فيما يعتقد هو ، ثم جعلته فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً ، ولا يرث من آبائه مالا ولا ملكا ولا جاهاً ، وكان يأمل فى صباه أن تتحقق نبوته فالنبوة لا تحتاج الى مال فلما يئس طلب الملك والملك يحتاج الى مال فطلبه بشعره ولكن لم تذل نفسه كما ذلت الشعراء فكان يرى انه يعطى لمدوحيه اكثر مما يأخذ منهم ، فهو يمنحهم شعرا خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلا . وكان يتجلى ذلك فى عتابه او هجائه يوم يعتب على ممدوحه أو يهجوه ، يقول لسيف الدولة وهو يعاتبه :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا　　بأننى خير من تسعى به قدم
أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى　　وأسمعت كلماتى من به صمم

فتباً لهذا الزمان الذى وضعه هذا الوضع ، منحه صفة الملوك ولم يجعله ملكا ، وحرمه المال ولم يحرمه النفس ، فلم يوائم بين نفسه وحاله - يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء ولملكوا عليهم خيارهم ، ولعله يعنى نفسه ، ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل ولا يأنفون من عار

أما فى هذه الدنيا كريم　　تزول به عن القلب الهموم
أما فى هذه الدنيا مكان　　يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى　　علينا والموالى والصميم
وما أدرى أذا داء حديث　　أصاب الناس أم داء قديم

اعتداد بالنفس لا إلى حد ، وطموح ليس بعده طوح ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه ، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله - هذا كله روح فلسفة المتنبى - وكل ما قاله من حكم فهو صدى لهذا الوضع وترجمة لهذه الأحداث وتعبير عن شعوره بها

أوضح ما تنتجه هذه الحال فى نفس كنفس المتنبى « فلسفة القوة » وكذلك كان ، فالمتنبى قوى فى التعبير عن نفسه قوى فى الحملة على الناس وعلى الزمان . تتجلى القوة فى كل أقواله وفى جميع حالاته . وهذه القوة اكثر ما تكون فى سنيه الاولى أيام كان يتنقل فى البلاد ويدبر خطته

ليحقق أمله . وقد ظل على هذه الحال الى أن بلغ الرابعة والثلاثين ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتبعه حيثما كان ويمدحه فى الحل والترحال ، وأثر فى نفسه فشله عنده فرحل الى مصر وبها كافور وشتان بين سيف الدولة فى عربيتــــه وفروسيته وبين كافور فى عجمته وعبوديته. ولـكنه الزمان الغادر رماه بأقسى مالديه حتى جعله مادحاً كافوراً فهو فى مدحه يغالب نفسه ويلعب بالالفاظ ليصوغ مدحاً يشبه الذم ، فاذا تحرر من ذلك واخذ فى هجائه عادت اليه قوته وكأنه استرد حريته . فهو قوى فى نفسه لا يهاب الدهر ولا يكترث لأحداثه :

ان ترمنى نكبات الدهر عن كثب ترم امرءاً غير رعديد ولا نكس

وهو قوى فى احتقاره اللذات الوضيعة وطموحه الى أعلى غايات المجد :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الاجسام

يأبى أن يضعف نفسه بالغزل والخمر فانهما يحولان دون المجد :

تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
ذر النفس تأخذ وسعها قبـل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينــــة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيـا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وهو قوى فى هجائه فهو اذا رمى أصمى واذا مس أدمى يطوق من ينـاله الذم . ويقلده الخزى ويلزمه عاراً لا تمحوه الايام

وهو قوى فى دعوته للناس أن يثوروا ويؤسسوا ممـلكتهم على حد السيف :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عنـد محبيهن كالقبل
وما تقر سيوف فى ممالـكها حتى تقلقل دهراً قبـل فى القلل

وهو قوى فى احتقار الناس إذ لم تعل همتهم كهمته ولم يرتفعوا عن السفاسف رفعته :

اذا ما الناس جربهم لبيب فانى قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعاً ولم أر دينهم إلا نفاقا

كل شيء فى سبيل المجد لذيذ محبب اليه فالقتل والموت والعذاب وقطع الفيافى عذب المذاق :

فموتى فى الوغى عيش لأنى رأيت العيش فى أرب النفوس
سبحان خالق نفسى كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم
وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بان أبالى

وأخيراً ترى القوة تشع فى جوانب أساليبه وقوافيه فاذا اشترك المتنبى وغيره من الشعراء فى معنى من المعانى رأيت أبيات المتنبى غالباً أقوى أسلوباً وأجزل لفظاً وأقوى قافية وأمتن تركيباً لأنه يسبغ عليها من قوته ويزيد فى شدتهـا وحدتهـا من شدته وحدته ـ حتى لقد يقول

المألوف والفكر الشائع الذى توارد عليه الشعراء فى كل العصور فيخلع عليه المتنبى بعض نفسه وقطعة من حسه فكأنما هو جديد وكأنه لم يسبق اليه

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته فى مدح الولاة والامراء والملوك يصوغ الثناء لهم وينظم عقود المدح فيهم ويجهد عقله فى اختراع معانى الكرم والبأس ونسبتها اليهم. ويرحل من بلد الى بلد طلباً لعطاياهم ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم، ويتربص الفرص للقول فيهم، فاذا أقبل العيد هناهم واذا مرضوا عوذهم وإذا انتصروا فى حرب شاد بفعالهم واذا انهزموا لطف من هزيمتهم. واذا مات لهم ميت عزاهم. واذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم. وذلك ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة وهمته العالية التى يتحدث عنها - لو انه ترفع عن هذا كله وقنع بان يتغنى بشعره فى وصف شعوره لوائم بين نفسه وشعره، ولكنه - على ما يظهر - لم يشأ عيشة الزهد وانما شاء عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة منهم والاستعانة على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبايجاد الصلة بينه وبينهم، ولكنه من حين لآخر يشعر بلذعة فى أعماق نفسه من هذه الصفة فيفلسف التهنئة ويقول:

انما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البعداء
وأنا منك لا يهنىء عضو بالمسرات سائر الاعضاء

ثم هو لا يتنزل الى مدح غير العظماء، واذا أنشد شعره أنشده فى علو وكبرياء فاذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيه ممدوحه عليه ثار ثورة من جرحت عزته ونيل من كبريائه، وكأنما تجلت له الحقيقة وهى صعوبة الجمع بين نفس تمتلىء عزة وشاعر يقف شعره على المديح - وهذا كله جذبته شؤون الحياة الى الضعة والضعف أبت عليه نفسه، وحولته من ضعف الى قوة ومن ضعة الى رفعة:

لم الليالى التى أخنت على جدتى برقة الحال واعذرنى ولا تلم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
ردى حياض الردى يانفس واتركى حياض خوف الردى للشاء والنعم

وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف ابو العتاهية الحياة فلسفة زهد - فويل للضعيف، وويل للجبان، وويل لمن يخاف الحوادث، وويل لمن يهاب الموت:

ولا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

هذه ناحية من نواحى فلسفة المتنبى هى «فلسفة القوة»، وقد كان له فى فلسفته نواح أخرى كثيرة لم يتسع لها هذا المقال

احمد امين

أبو الطيب المتنبي
كان عبقريًّا، ولكن ...

بقلم الاستاذ خليل مطران

« . . . لا جرم ان ابا الطيب قال الشعر كأحسن ما قالته العرب الى زمنه وبز بطائفة من ابياته وقصائده كل قائل من قبل ومن بعد ، غير ان من وهب تلك العبقرية كان جديراً بأن يحدث في الشعر العربي حدثا غير ما قصر همه عليه . . . »

عني العالم العربي بذكرى « المتنبي » لانقضاء الف عام على وفاته واستنفد كتاب الضاد صيغ المدح لذلك الشاعر العظيم وأبدوا فى سيرته وأخلاقه آراء لم يختلف بعضها عن بعض كبير اختلاف دلت بجملتها على عبقريته كما نبهت على مواطن القوة والضعف فى آدابه وطباعه

ولما طلب إلى أن أكتب كلمة بين الكلمات التى ستنشر لاصدقائى من أساطين البيان فى هذا العدد من الهلال ، وكان وقتى على أسف منى لا يتسع لاستئناف المطالعة والمضى فى المراجعة لأخدم الغرض المروم حق خدمته ، رأيت أن أجتزىء بايراد محصل ثبت فى ذهنى من مدارستى القديمة لشعر أبى الطيب ولما وقفت عليه فى كتب شتى من أخباره

فأنا أخط هذه السطور وأبو الطيب متمثل فى ذهنى بناحية منه سما بها الى أعلى الذرى . وأخرى تدلى بها الى قرارة بعيدة الغور :

أما الناحية التى رفعته فهى عبقريته ـ وأما التى خفضته فهى طمعه . صراع شديد قام فى نفسه من بدء أمره بين الهدى والهوى . أحس بأنه وهب ما لم يوهبه غيره من وفرة العقل والقدرة على البيان ، فكان أول ما سلكه فى طلب العلياء ادعاؤه النبوة . غير انه لم يعتم أن تبين من أية قمة شاهقة أشرف على هوة سحيقة مردية . فتاب عندما استتيب وعاد متضعاً لامتواضعاً الى الطريق المعبدالذى طرقه الشعراء منذ جعلوا القريض وسيلة ارتزاق ، فنظم المديح للذين استندى جوانبهم من ذوى الجاه العريض . وفى قصائده الاول خليط عجيب تتبين فيه المشاكسة العنيفة بين الطبع والتطبع ، فآناً يحاكى المبرزين من شعراء عصره فتضعف إجادته وتتعاص أساليبه وترتبك صوره ، وآناً يرجع الى وحى فطرته ويسعده استحكام ملكته فيأتى بالسوانح المبتكرات فى حبر لا تلبس أحسن منها الغوانى الخفرات . على ان هذه الفرائد الغوالى وان لم يدانها ما جاورت من الجمان فى قلائدها هى التى أعلت قدره وأشاعت ذكره ومهدت له السبيل حتى بلغ سيف الدولة بحلب

ولدى هذا الملك الشجاع الاديب أراد المتنبي أن يمنح تكرمة لم يمنحها الشعراء قبله فأذن فى الانشاد جالساً بتلك الحضرة . ثم كان له من بسط العيش ما اشتهى وكان له من مصاحبة سيف الدولة فى بعض غزواته ما توخى ان يثبت به لنفسه انه رب سيف وقلم

وفى الحق انه كان شجاعاً وفى الحق ان قصائده فى سيف الدولة جاءت مصداقاً لظنه بتفرده بين الشعراء وتفوقه عليهم ، ولكنه فى هذه الحالة تجددت به النزعة الى اتخاذ مكان حسى لا معنوى إن لم يعل به الملوك علا به سائر الخلق . ولعل بوادر بدرت من هذه النزعة هى التى جنحت بسيف الدولة الى الانقباض عنه آناً واستفزته لتحريش بعض اللغويين أو بعض الشعراء على مناقشته او منافسته آناً آخر ، فتأتى من تلك النزعات الظاهرة والخفية الجفاء الذى أفضى بالمتنبي الى مفارقة ولى نعمته وإجابة كافور الاخشيدى الى دعوته

ولقد تأملت طويلا فى التماس السبب الذى يحمل رجلا مثله على التخلى عن نعيم وجد فيه لالتماس حالة جديدة ملتبسة يتوخاها ، فلم اقتنع ان النزعات المشار اليها آنفاً وما مست به كبرياءه قد اثارت فيه الحمق والغضب والعزم على تلك الهجرة . إذ ان المواقف الاولى التى وقفها من ممدوحيه بعد سقوط ما ادعاه من النبوة لم تكن كلها مما يوفر فيها العرض ويسلم الشرف الرفيع من أذى الذلة والضعة ، وانما كان السبب فيما اعتقدت انه رأى مطمعه لدى سيف الدولة قد حد بحد لا سبيل الى مجاوزته وأن إلحاح الاخشيدى فى استزارته قد حرك فيه اقوى عوامل نفسه وهو الطمع. فخيل اليه ان فى مصر الواسعة ، وعلى رأسها خصى فدم غاصب للملك، ولاية يستطيع ان يتصيدها . ومن يدرى بعد بلوغه الولاية وتمكنه فيها ما تهيئه له الأقدار من غصب الغاصب على حد قوله :

وتضريب أعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

على ان تركه لسيف الدولة وانتقاله من يقين الى ريب وتبدله من رخاء وجاه بآمال تحقيقها فى يد الغيب ـ كل أولئك لم يكن بهين عليه . وفى ذلك يقول وكأنه يستدرج سيف الدولة الى إرضائه واستبقائه :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

ثم يدلف بذلك الاستدراج الى الاغراء فيقول فى ختام تلك القصيدة التى هى من لباب الشعر وخلاصته الصافية :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

عرف المتنبي قدر ما يفارقه ولكن مطمعه غلب عليه ففارق . . .

ولقى كافوراً وحظى عنده زمناً ومنى بما تمنى خداعاً وزوراً . غير انه أخذ بسحر الرغيبة وأنشد فى الخصى شعراً هو أجود منظومه لأنه أمن عنده المنافسين من الشعراء ومضى على

سليقته فى استنزال إلهامه وفى اختيار روائع المبانى لبدائع المعانى . حتى اذا طالت غلته وبدا له ما وراء رفيف السراب من حرقة تزيده حرقاً تولى عن مصر ولم يكتف لخيبته بهجو كافور بل هجا اهل مصر فاركبه طمعه فى هذه الخطة نكراً وحمله وزراً : نكر الذم فى يومه لمن مدحه فى أمسه ووزر الاستطالة على أمة انما جاءته الاساءة إن كان ثمت إساءة لامنها بل من المسيء اليها . وفى هذا المعرض قد يصح أن يحمل قذع المتنبي لأهل مصر على غرض الاستثارة . ومثل هـذا كان جارياً فى ذلك العهد بل ظل شيء منه الى هذه الايام . ولـكن رجلا بمقدرة المتنبي وفطنته لا يحاسب كما يحاسب أحمق موتور بل كان حقيقاً به وهو أبلغ المتصرفين فى الـكلام أن يجد وجوها أخرى للاستثارة . ولو اتخذ لذلك مدح اهل مصر وتبيين ما يجنيه عليهم ذلك الغاصب للـكهم لـكان سهمه أنفذ ومرماه أولى بالاصابة

فالطمع من أول شأنه الى آخره ، قد جنى عليه وجنايتـه لم تقتصر على إبعاده عن مواطن النعماء وإركابه مراكب الهجر والشقاء ، الى أن كان مما اكتسبه فى فراره من مصر لقاؤه منيته فى فراره ، بل تأتى من ذلك الطمع خطب جلل منى به الشعر

ولا جرم ان أبا الطيب قال الشعر كاحسن ما قالته العرب الى زمنه وبز بطائفة من أبياته وقصائده كل قائل من قبل ومن بعد . غير ان من وهب تلك العبقرية كان جديراً بأن يحدث فى الشعر العربى حدثاً غير ما قصر همه عليه من تفكير فى بعض أساليب التعبير ومن التنبـه لـكل حالة من حالات الحياة ، يقول فيها حكمة تتناشدها ألسنة الخلق كلما عرضت تلك الحالة ، فان أمثال هـذه الجزئيات على ما لها من قيمة لم تحول نظم القصائد أدنى تحويل عن الخلط والخبط اللذين جرهما اليها المداحون من سلف له ومعاصرين

رجل ادعى النبوة فى مقتبل شبابه أى انه نوى خلق دين للناس وبالبداهة إحداث نظام روحى واجتماعى وشرع شريعة وسن سنن للمعاش والمعاد

رجل دلت بعد ذلك حكمه فى شعره على انه كان عليما ببنى الدنيا خبيراً بما يبدون وما يخفون واقفاً على مواقع الصواب والخطأ من سرائرهم ومن أفعالهم . زعم قوم انه كان يعرف اليونانية وان كلماته الجوامع مأخوذة عن ارسطاطاليس . وزعم آخرون انه لم يعرف اليونانية وان ما توافق من أفكاره وأفكار ذلك الفيلسوف الاكبر انما كان توارد خواطر فهو على الحالين ذو مقدرة عقلية سامية لا نزاع فيها

رجل ترى فى نخبة من قصائده آيات إبداع فى الوصف وفى إدراك الحقائق فضلا عن الحلى اللفظية والابتكارات الخيالية فتستطيع أن تفاخر بصدر من مختاراته ما هو من نوعها فى أية منظومة أجنبية بلغت ما بلغت من الغايات فى الاتقان

هذا الرجل كيف نفهم أن يلزم فى قرض القريض خطة الشتات والخلط بين الاغراض

المتباينة فى نظم القصيدة الواحدة ؟ ألست ترى ان استخدامه الشعر ، ولا هم له إلا إشباع نهمة فى نفسه ليست من الفن فى شيء ، قد حمله على تلك المحاكاة والمجاراة لئلا يبعده التجديد عن ذوى الحول والطول ومغدقى الهبات والصلات ؟

كان غبناً وأى غبن أن يجعل المتنبي قصائده كما جعلها غيره ملتقى أغراض لا ارتباط بين معانيها ولا تلاحم بين أجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها وتوطد بها أركانها . غير ان طمعه قد جنى على عبقريته كما جنى على مجده

فاما اذا نظر الى شعره من حيث هو الشعر الذى ألفه العرب منذ أجراه المداح فى مجراه الباقى الى اليوم ، فانى لمن القائلين بان المتنبي فى الذروة العليا من طبقات شعرائنا وانه رزق ما لم يرزقه أحدهم من سحر البيان وقوة الاختراع وسر التفوق

خليل مطران

بين ارسطو والمتنبي

قال ارسطو : « الاشكال لاحقة بأشكالها ، كما ان الاضداد مباينة لأضدادها »

وقال المتنبي : وشبه الشيء منجذب اليه   وأشبهنا بدنيانا الطغام

وقال ارسطو : « الفرق بين الحلم والعجز ان الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف فليس للعاجز أن يتسمى باسم الحليم

وقال المتنبي : كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجىء اليها اللئام

وقال ارسطو : « على قدر بصيرة العقل يرى الانسان الاشياء ، فالسالم العقل يرى الاشياء على قدر حقائقها ، والنفس اللئيمة ترى الاشياء بطبعها »

وقال المتنبي : ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

وقال ارسطو : « على قدر الهمم تكون الهموم »

وقال المتنبي : أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقال ارسطو : « النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام »

وقال المتنبي : من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

وقال ارسطو : « الزيادة فى الحد نقص فى المحدود »

وقال المتنبي : متى ما ازددت من بعد التناهي   فقد وقع انتقاصى فى ازديادى

وقال ارسطو : « كره ما لا بد من كونه عجز فى صحة العقل »

وقال المتنبي : نحن بنو الموتى فما بالنا   نعاف ما لا بد من شربه

طلب الى أن أكتب فى احدى نواحى أبي الطيب المتنبي ، وأعلم أن الناس فى القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا . وأن شعره نال من عناية الأدباء وبحثهم وجدلهم مالم ينله شعر قبله ولا بعده وأن كتبا ضخاما ألفت فى كل ناحية من نواحى الرجل والشاعر ، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً ، وأن كل نظرة فيه تقع على نظرات سبقتها اليه من قرون ، ولكن المتنبي الضخم يعز على من رامه ويطول ، فهو الجبل الاشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبا ، وكيفما ملت برأسك الى ناحية من نواحيه رأيت جديداً ، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيبهرك ماترى من عظم ، ويفتنك ما تشاهد من ألوان ، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة فى اثر النظرة فلا تعود كل واحدة منها الا بمعنى جديد ، وفن فى الحسن بديع ، ولأمر ما كان المتنبي يقول فى ثقة ويقين :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم



فكيفما كتب الكاتبون فى المتنبي لا تزال فيه مجالات للقول ، ولا يزال يطل عليك من مشارف أبياته معنى سرى فى ثوب من البيان قشيب يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا والمتنبي وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد يطغى على الزمن قوة ، ويزهو على الأيام جدة وما نزال نقرؤه سنة أربع وخمسين وثلثمائة بعد الألف فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، ولا يزال يهمس فى الاذن بالحكمة النادرة والقولة الحكيمة وقد مشت فوق رءوس الحقب ، وخاضت الينا مفاوز القرون ، وكانت لدة الدهر فى شبيبته ، ثم جاءت الينا من ذلك المكان البعيد الذى نسميه الماضى وقد زادها القدم جدة ، وخلع عليها تعاقب الاعوام بردين من جلال ويقين :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

نقرأ المتنبي فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها ، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها ، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها ، ونسمع فى النفس دبيبها ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها ، وهى منا على طرف الثمام ، ومن اخبر بهمسات النفوس من أبي الطيب؟ ومن هو اقدر منه على كشف جولات الخواطر :

برتنى السرى برى المــــدى فرددنى أخف على المركوب من نفسى جرمى
وأبصر من زرقاء جو لاننى متى نظرت عيناى ســـاواهما علمى

الف سنة تمر تطوى فيها أمم وتنشر أمم ، وينتقل فيها العقل الانسانى فى أطوار شتى يمحو بعضها بعضا ، وتتبدل العادات غير العادات والافـكار ، والمتنبى لا يزال يقرأ ويقرأ ويجـد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح اليه الضمائر

مضى سيف الدولة ومضت آثاره ، وذهب كافور وانطوت أيامه . وأين على الحاجب هذا الذى أجاز المتنبى على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعاً وبقى ذكر المتنبى كالصخرة العبوس ينفرج امامها زحام الايام ، وتنكص دونها صروف السنين :

وعندى لك الشرد السائرا ت لا يختصصن من الارض دارا
قواف اذا سرن عن مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا
ولى فيك مالم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

فالمتنبى عظيم وأريد فى هذا المقال ان اكشف عن قليل من سر هذه العظمة ، وأن ابين بقدر ما فى قلبى شيئا من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشـــعراء عصره ، وحجبتهم بغبارها ، وما كانوا خاملين ولا كانوا مقصرين ، وفيهم السرى الرفاء وكشاجم والنامى والدمشقى والسعدى وامثالهم من كبار الشعراء ! ولـكنه السهم العاثر ، والجد العاثر ، ان تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخباً ولجباً ، وينثر درر بدائعه يميناً وشمالا فيصغى اليه الدهر وتشخص له الابصار وتبقى أنت مغمورا فى الزحام لا تعدم وكزة من مغامر أو ركلة من مزاحم فى ذلك الخضم الزاخر الرجاف ، والدنيا أم اذا برزت مواهب أحد ابنائها انصرفت اليه بتدليلها ، وطوقته بحنانها نابذة أبناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور

وكان المتنبى شاعراً بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر فتحدى شـــعراء عصره فى صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل :

اذا شاء أن يلهو بلحيـــة أحمق أراه غبـــارى ثم قال له الحق
ولا تبـال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وأظهر ما يمتاز به شعر أبى الطيب القوة والروعة والابتكار والنزوع الى غاية لم يصل اليها الشعراء قبل ، والقدرة على ارسال المثل ، ودقة الوصف والتصرف فى المعنى القـديم حتى يعود غضاً جديداً . وقد تجد لكل شاعر فى كل قصيدة قالها بيتاً أو أبياتاً قليلة تعد من عيون الشـعر وبدائعه ، أما المتنبى فلا تجد له فى كل قصيدة الا بيتاً أو أبيـاتاً قليلة لم تصل الى شأوه البعيد ، والباقى الـكثير من القصيدة غرر ودرر ، فهو اذا مدح يقول :

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيـا بأنك خالد

فالناس يمدحون الملوك بالشجاعة والاقدام وكثرة الغزوات وأن النصر معقود بلوائهم ، ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ويصعد فى المدح بهذه المعانى الى افق أعلى تظهر فيه خصائصه وتتميز مواهبه فيجعل قتل الاعداء نهباً لاعمارهم واغتصاباً لها ، ثم يدفعه خياله البعيد الى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة اتصل بعضها ببعض فكونت عمراً طويلا غير محدود ثم يرتقى الى اوج أسمى فيفرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتناهية التى انتزعها من أعدائه ولا يكتفى بان هذا — إن تم — يصل به الى الخلود بل يدعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تهنأ بهذا الخلود . ثم ما أجل تصوير النصر المحقق فى قوله بعد هذا البيت :

فانت حسام الملك والله ضارب وانت لواء الدين والله عاقد

ثم انظر اليه حين يقول فى سيف الدولة :

أتحسب بيض الهند اصلك اصلها وانك منها ساء ماتتوهم

اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى اغمادها تتبسم

وقد اتخذ المتنبي من اسم سيف الدولة سبلا شتى للافتنان فى مديحه والمماثلة بينه وبين السيوف فاجاد فى كثير من ذلك وحلق ، ومثل هذه الفرص تعرض لكثير من الشعراء ، ومجال القول فيها هين اذا لم يتجاوز الشاعر اللعب باللفظ على نحو رخيص من التخيل ، أما المتنبى فليس من هذا الصنف ولا من ذلك الطابع . استمع له وهو يتهكم بسيوف الهند حين تظن كذباً وغروراً وتلمساً لشرف الاتصال بسيف الدولة أنها هى وسيف الدولة من أصل واحد فكلاهما قاطع بتار ، وكأنى أسمع تهاتفه فى سخرية واستهزاء حين يقول : « ساء ما تتوهم » وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية ، فأكثر ما تظهر فى هذه الجمل القصيرة المفصولة التى لها وقع السهام ، ثم يصعد الى أفق لا تسافر اليه الظنون فيقول ان هذه السيوف تكتفى من الشرف بأن اسمك وافق اسمها فاذا سميناك خلناها تبتسم فى أغمادها تيها وعجباً

ثم خذ مثالا آخر فى مدح كافور :

اذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا وان طلبوا الفضل الذى فيك خيبوا

ولو جاز ان يحووا علاك وهبتها ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

أيستطيع شاعر ان يصور الصفح والتجاوز وعظم النفس هذا التصوير ؟ ان حسادك واعداءك إذا سألوك العطاء اعطيت واغدقت وسألتهم ان يتحكموا فيما يطلبون ، ولكنهم لو طلبوا ان ينالوا ما فيك من كريم الشيم وعالى الهمم ردوا خائبين لا ضنا منك ولا بخلا ، فلو كان فى استطاعتك ان تمنحهم اياها لفعلت « ولكن من الأشياء ما ليس يوهب »

وفى هذه الجملة القصيرة ايضا تظهر قوة الشاعر وشدة اسره

ومن ابدع ماقاله فى المديح :

مالنا من نواله الشرق والغر ب ومن خوفه قلوب الرجال
قابضاً كفه اليمين على الدنـ ـيا ولو شاء حازها بالشمال

ننتقل بك الى الوصف ولنبدأ بهذه الأبيات :

وذى لجب لا ذو الجناح امامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم
ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه من اللمع فى حافاته والهماهم

برع المتنبي فى وصف الجيوش والوقائع ، ما فى ذلك شك ، فقد كان يحمل بين جنبيه نفس نزاعة الى القتال تدفعها الآمال الكبار ، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس مؤججة لتلك الجذوة ، ولو حاولنا ان نختار له خير ماقاله فى هذه الناحية لطال المقال ، ولكنا نكتفى بالابيات التى قدمنا ففيها قوة وفيها جمال شعرى وفيها وصف دقيق . ما اروع اسلوبه فى البيت الاول ! وما اجمل مافيه من تقسيم وتنسيق ، فالجيش كثير العدد كثير اللجب تتهاوى قذائفه ، أثار الوحوش من مكامنها والطيور من اوكارها ، فلا ذو الجناح بناج من سهامه المترامية ولا الوحوش بسالمة من عديده الخضم ، ثار فيه الغبار فسد الافق وعلا فى السماء فكسف الشمس ، فهى تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء ، فاذا اطلت عليه فانها تطل من بين ريش النسور التى حلقت فوقه لوثوقها بنصره وشدة طمعها فى جثث اغدائه، وقد شرح هذا المعنى فى قصيدة اخرى وجلاه فقال :

يطمع الطير فيهم طول اكلهم حتى تكاد على احيائهم تقـــع

وهذه الشمس اذا وقفت الى فرجة بين اجنحة النسور سقطت اضواؤها على الخوذات مدورة كالدراهم ، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة وان المشاهدة الدقيقة لمظاهر الاشياء كان لها اثر بعيد فى تكوين المتنبي ، وقد اعاد هذا المعنى فى قصيدة شعب بوان فقال :

والقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

ثم إن هذا الجيش كثرت فيه همهمة الابطال ، وهى الصوت يتردد فى الصدر فاذا رعدت السماء لم تسمع ، وازداد فيه بريق السيوف فاذا لمع البرق لم يبصر ، واذا كانت الهمهمة وهى الصوت الخافت تخفى الرعد فاجدر بأن يكون الجيش بالغاً الغاية فى العظم

وللمتنبي منحى فى الرثاء عجيب ، فهو لا يلطم الخدود ، ولا يشق الجيوب كما يفعل صغار الشعراء ، ولكنه يطلق العنان لفلسفته فى الموت والحياة فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى :

خطبة للحمام ليس لها رد ولكنها المسماة ثكلا

واذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا
ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال أف فما مل حياة وانما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشـــباب فاذا وليا عن المرء ولى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقا جديداً هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى الى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى
كأن فعلة لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تمنح ولم تهب

والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن ، فهو يتشبث بالاوهام ، ويفزع لتكذيبه الى أوهى الأسباب

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته فى جدته ، ولكنه شغل اكثرها كعادته بالحديث عن نفسه

وللمتنبي فى الهجاء القول الممض والكلام المر . ولم يكن كثير الهجاء ولكن بيتاً واحداً من هجائه يقوم مقام القصيدة الطويلة فى الايلام وشدة الايجاع واصابة المحز، فهو يقول لابن كروس جليس ابن عمار :

فلو كنت امرأ تهجى هجونا ولكن ضاق فتر عن مســـير

هذا منتهى مايصل اليه الاحتقار فهو ليس برجل يؤبه له لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن ينفسح لمسير

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم :

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولو أن إنساناً حاول أن يهجو ألأم مخلوق ما استطاع ان يقول فيه أنكى من هذا وأقذع

واذا شكا الزمان ونقد الاجتماع أو تعرض لاخلاق الناس ، فهناك الانهمار فى الحكمة وضرب الأمثال وفلسفة الحياة . ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل لحكم أبى الطيب كثيرة جداً وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد ، واكثر قصائده حكماً : « لا افتخار إلا لمن لا يضام» ، « فؤاد ما تسليه المدام» ، «لهوى النفوس سريرة لا تعلم » ، « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا»

وأوابد ابى الطيب التى بز بها الشعراء ووصل بها الى قمة الفن الشعرى اكثر من أن تجمع فى مثل هذا المقال . وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة فى اذاعة شىء من سر عبقريته

علي الجارم

الدسائس الادبية
بين المتنبي والصاحب بن عباد

بقلم الدكتور زكي مبارك

هذا فصل موجز أصور به لوناً من ألوان الدسائس الادبية التى شهدها القرن الرابع . وما أريد فى هذا الفصل أن أتحدث عن حياة المتنبي . فلذلك تفاصيل فى هذا العدد من الهلال . وما أريد أيضاً أن أتحدث عن حياة الصاحب فقد أطلت فيه القول فى كتاب النثر الفنى . وإنما أقف عند مسألة واحدة كان لها أثر فى تلوين النقد الادبى عند كتاب القرن الرابع . وتلك هى الخصومة بين المتنبي والصاحب بن عباد . والمطلعون على التاريخ الادبى لذلك العهد يعرفون أن الصاحب كان يتشهى أن يستعبد كبار الكتاب والشعراء ، ويعرفون أن نفسه تسامت إلى استعباد المتنبي وانه خاب فى ذلك وكانت هذه الخيبة جرحا بليغاً تنزى له قلب ابن عباد فحقد على المتنبي وحرض عليه كبار الناقدين

ولنقيد هنا أن المتنبي كان ترفع عن مدح رجال آخرين من أشباه الصاحب منهم الوزير المهلبى، نعرف ذلك من خطاب المتنبي الذى أرسله الى الصابى وكان الصابى راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار فقال ابو الطيب للوسيط : « قل لابى اسحاق : والله مارأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا أوجب على أحد فى هذه البلاد من الحق ما أوجبته . وأنا ان مدحتك تنكر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك لاننى لم أمدحه فان كنت لا تبالى هذه الحال فانا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالا ولا عن شعرى عوضا »

والمهم أن يعرف القارىء أن ابن عباد حقد على المتنبي لانه لم يمدحه فلنحدثه عن خطر ذلك الحقد فى الآثار النقدية التى حفظت عن ذلك العهد ولنكتف بشاهدين اثنين :

الشاهد الاول

الف أبو هلال العسكرى كتاباً سماه « الصناعتين » وهو كتاب ممتع تحدث فيه عن الخصائص الشعرية والنثرية ، ولكن عند التأمل نجد فى ذلك الكتاب النفيس ظلالا للدسائس الادبية التى وقعت بين المتنبي وبين ابن عبـاد ، فالمؤلف يتلمس الفرص ليشيد بأدب الصاحب وليغض من قدر المتنبي . أما اشادته بادب الصاحب فتظهر فى استشهاده بكلامه كقوله فى باب السجع والازدواج :

« ومثله قول الصاحب : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا باهل جلدتك . . وقوله : وقد كتبت الى فلان مايوجز الطريق الى تخلية نفسه وينجز وعد الثقة فى فك حبسه »

ونراه فى مكان آخر يقول : « روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه : تشط غداً دار جيراننا . فقال ابن عباس : وللدار بعد غد أبعد . فقال عمر : والله ما قلت الا كذلك . . . واذا كان القوم فى قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة كما أن اخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة . . . وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد : « كانت سراة الناس تحت أظله . فسبقني وقال : فغدت سراة الناس فوق سرانه . وكذلك كنت . قلت . فعلى هذا جائز مايدعى لهم »

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى يخص بها الله بعض الناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول :

« وهكذا يفعل الكتاب الحذاق والمترسلون المبرزون . ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : (فان حنثت فيما حلفت فلا خطوت لتحصيل مجد ولا نهضت لاقتناء حمد ولا سعيت الى مقام فخر ولا حرصت على علو ذكر . . .) فاتى بإيمان ظريفة ومعان غريبة »

وما أحب أن استقصى ما تكلف العسكرى من الثناء على الصاحب فذلك مبثوث فى كتاب الصناعتين . واما تحامله على المتنبي فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه . فهو لايذكره باسمه ولايتحدث عن شعره الا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

ايارب انى لم أرد بالذى به   مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : « فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه ويستعمله فى ابانه . ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم   شيم على الحسب الاغر دلائل

فاشمت عدوه بنفسه »

وفى باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

انى على شغفى بما فى خمرها   لأعف عما فى سراويلاتها

« وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ »

وفى باب التوشيح يقول : ومما عيب من هذا الضرب قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل عيش كلهن قلاقل

ألا ترون كيف استطاعت تلك الدسائس ان تفسد الحكم فى نفس رجل شريف مثل أبي هلال ؟ لقد كان فى مقدور العسكرى أن ينصف أبا الطيب وأن يتجاوز عن سيئاته ، ولكنه شغل

نفسه بتعقب مساوئه ليدخل السرور على قلب ابن عباد . ولنتذكر أن ما أخذه العسكرى على المتنبي ظل يلاحق هذا الشاعر فى جميع العصور الادبية بحيث لا يكاد يخلو كتاب من كتب النقد من الاشارة الى تعسف المتنبي واسفافه فى الحدود التى رسمها صاحب كتاب الصناعتين

الشاهد الثاني

لم يكتف الصاحب بتحريض النقاد على المتنبي ، وانما اندفع يغمزه ويناوئه برسالة كتبها بنفسه على قلة ما كان يكتب فى النقد الادبي ، وهي رسالة صغيرة ولكنها قيمة ، بغض النظر عما فيها من تحامل ومكابرة ، وفى مطلع تلك الرسالة يتحدث الصاحب فيقول :

« كنت ذا كرت بعض من يتوسم بالادب الاشعار وقائليها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي فقلت : انه بعيد المرمى فى شعره ، كثير الاصابة فى نظمه إلا انه ربما يأتي بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء فرأيته قد هاج وانزعج ، وحمى وتأجج ، وادعى ان شعره مستمر النظام ، متناسب الاقسام ، ولم يرض حتى تحداني فقال : ان كان الامر كما زعمت فاثبت فى ورقة ما تنكره ، وقيد بالخطبة ما تذكره ، لتتصفحه العيون . وتسبكه العقول . ففعلت ، وان لم يكن تطلب العثرات من شيمتي ولا تتبع الزلات من طريقتي . وقد قيل : أي عالم لا يهفو ، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ . وانما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض أنى ممن يروى قبل أن يروى ، ويخبر قبل أن يخبر ، فاستمع وأنصت ، واعدل وأنصف ، فما أوردت فيه إلا قليلا ، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيراً ، وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب ، ومنينا بأعياد أغمار اغتروا بمادح الجهال ، لا يضرعون لمن حلب الادب أفاويقه ، والعلم أشطره ، لا سيما الشعر ، فهو فوق الثريا وهم دون الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فاذا حكموا رأيت بهائم مرسنة ، وأنعاماً مجفلة »

وفى هذه الكلمة بيان لنفسية الصاحب وما انطوت عليه من أضغان وأحقاد ، فهو يرى المتنبي رجلا أنصفه الزمان الجهول ، ويرى أشياعه من السوائم والانعام

ولنقدم للقارىء نماذج من نقد الصاحب للمتنبي . قال :

« ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء أدب النفس . وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله : رواق العز فوقك مسبطر . ولعل لفظة (الاسبطرار) فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق ، نعم هـذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » من القرآن ، وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لاول ميتة فى ذا الجلال

«ومن سمع باسم الشعر ، عرف تردده فى انهتاك الستر.ولما أبدع فى هذه القصيدة واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

« وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ، ولكنها استعارة حداد فى عرس . ولما أحب تقريظ المتوفاة والافصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من فى جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

وكان الناس يستبشعون قول مسلم : سلت وسلت ثم سل سليلها . حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

« فالمصيبة فى الرائى أعظم منها فى المرثى . ومن أوابده التى لايسمع طول الدهر مثالها قوله :

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

« وهذا التحاذق كغزل العجائز قبحاً ، ودلال الشيوخ سماجة ، ولكن بقى أن يوجد من يسمع « ومن افتتاحه الذى يفتح طرق الكرب ، ويغلق أبواب القلب . قوله :

أراع كذا كل الانام همام وسح له رسل الملوك غمام

« ولو لم يتكلم فى الشعر إلا من هو أهله لما سمع مثل هذا »

وما أحب ان أطيل ما أخذ الصاحب على المتنبى . فقد طبعت رسالته بالقاهرة ، ويستطيع القارىء ان يرجع اليها حين يشاء . والمهم أن نسجل أن رسالة الصاحب جرأت النقاد على المتنبى وفتحت لهم باب القول ، حتى ليمكن الحكم بأن ما ورد فيها من المآخذ كان المصدر الاول لا كثر المطاعن التى صوبها النقاد الى المتنبى

وللقارىء ان يسأل : أكان من الممكن ان تستر هفوات المتنبى لو سكت عليها العسكرى والصاحب ابن عباد ؟ ونجيب بأن تلك الهفوات كانت ظاهرة ، وما كان يمكن أن يسدل عليها الحجاب . ولكن تلك الدسائس الادبية كشفتها بطريقة جارحة . وأحاطتها بألوان من السخرية والتهكم والاستهزاء

وقد مر ذكر المهلبى فى مطلع هذا الفصل . فلنشر هنا إلى أن ترفع المتنبى عن مدح المهلبى كان له من العواقب ما يشبه ماحدث حين ترفع عن مدح ابن عباد ، فقد أولع الحاتمى بالوقوع فى المتنبى ولم يكن ذلك خدمة خالصة للأدب ، وانما أريد به التقرب الى المهلبى

فان سألتم : وما الذى صنع الحاتمى ؟ فانا نجيب بأنه طعن المتنبى طعنة دامية حين الف (الرسالة الحاتمية) وهى سهم مسموم ، لانه رد حكم المتنبى الى أصولها فى كلام ارسطاليس . فاستطاع بذلك ان يفضحه فضيحة بلقاء . . قد تقولون : ولكن المتنبى بقى مع ذلك من الخالدين

وهذا حق . ولكن أولئك النقاد سيخلدون أيضاً . وستظل أرواحهم تضايق روح المتنبى ما دامت الارض والسماء

زكى مبارك

عبرة الشباب

لمحة عن المنازع القومية في المتنبي

بقلم الاستاذ سامى الكيالى



المتنبي كما تخيله جبران خليل جبران

عاش المتنبي عمره وهو يحمل فى صدره عزم الشباب . نفس طموحة ، وروح مغامرة ، وقلب قلق وثاب ، وجنون بالمجد والتعالى والعظمة ، وايمان الواثق من نفسه ، وما إلى ذلك من هذه الألوان التى تتلاقى ظلالها فى حياة العصاميين الذين يرتفعون بنفوسهم من الضعة إلى قمة المجد وذروة العلاء . . هذا هو المتنبي وهذه أظهر خصائص نفسيته . فقد نشأ نشأة الفقراء ، وعاش حياة ضنكة مغمورة بالوان الشقاء . ولكن فقره لم يحل دون تفتح مواهبه ، وما كان الشقاء ليحيل ذكاءه بلهاً وتوقد ذهنه خبلا ، أو ليقعده فى أرض الكوفة مغمور الاسم لا يدوى صداه فى الآفاق . فقد تطلع المتنبي وهو فى مقتبل عمره إلى الامجاد ولم تصدمه الاحداث التى جابهته بل احتملها ابى النفس قوى الارادة هادىء الضمير. وظل فى طريقه يقتحم المصاعب ويواجه الاهوال . يجالد ويقارع ويناضل ويسير من بلد إلى بلد حتى همد جسمه بعد أن ترك فى دنيا الأدب العربى دوياً رن صداه حتى فى آداب الأمم الحية

دخل المتنبي غمار الحياة وهو خلو الا من هذا الخافق بين جنبيه ، ومن هـذه النزعات الصلبة القوية التى امتزجت بدمه وأعصابه. دخل غمار الحياة وكأنما كل شيء يعلن له « ان الدنيا لمن غلب » . عصر يعج بالاضطرابات والدسائس ، امارات تتقاذفها الايدى فى كل مصر وصقع ، متغلبون تضطرم نفوسهم بالاهواء والشهوات . وشهوة المجد فى نفس شاعرنا لم تكن أقل منها فى نفس غيره من الطامحين وهو القائل :

وفؤادى من الملوك وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

فلم ينكمش فى عقر داره ، ولم يشغل نفسه بالتوافه ، ولا عرف الضعف والوهن بل زج نفسه فى هذا الاتون الملتهب، وأخذ يجوب البلاد ويبلو اخلاق الناس ويتصل بالامراء . وكان الشعر وسيلته فى

المدح ، فاذا مدح أشاد بنفسه وقوته وأدبه ، وأشار الى مطامحه ، وصرح انه ليس كغيره من شعراء المديح الذين يكتفون بالتافه اليسير من أغراض الدنيا :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وفرق كبير بين الشاعر الذى يرتمي بين أعتاب ممدوحيه ضعيف النفس ذليلها ، وبين الذى يرسل شعره قوى النفس عزيزها ، ويعلن عن شخصية لها طمحات ورغبات لا حد لها ولا أمد . هذاهو المتنبي فى مجموعه . فما الذى يستفيده الشباب من دراسة حياته ؟ . والشباب فى عصرنا هذا يملأ الدنيا ويشغل الناس ـ على حد تعبير ابن رشيق فىالمتنبي ـ نعم ، يملأ الشباب الدنيا بميوله ونزعاته ، بواجبه نحو نفسه ووطنه ، بتحمله وقر النهضات وتضحيته بسخاء ، بمدىصلته بحاضره وربطه بين ماضيه وحاضره ومستقبله . فهل يستطيع المتنبي أن يكون هدى الشباب اذا ما تلمسوا بعض شكوكهم فى حياته وشعره ؟ . . ان طابع هذا العصر يختلف عن عصر مضى عليه الف عام . ولكن نفسية العصاميين فى جوهرها ومنازعها وطمحاتها هى هى مهما تباينت العصور . وقبل أن نجيب على هذا السؤال الذى فرضه «الهلال» الاغر نريد ان نقول إن النزعة الجديدة فى دراسة الا دب لمتعد لترتضى هذه « السطحية » فى درس الادب العربى بل لابد من درسه بتعمق واستقصاء وكشف لهذه القوى الدفينة التى تكمن فى قصيده ومنثوره . فانا مثلا لم يعد يهمني من قصائد المتنبي فى سيف الدولة هذه البهرجة اللفظية والاساليب القوية والحكم الغوالى ، بل ابحث فيها ـ وأنا أدرس عصر الحمدانيين ـ هذه الالوان التى أرى فى أصباغها نقع المعارك التى خاضها سيف الدولة فى حروبه مع نيقفور البيزنطى ، هذه المعارك التى تكاد تشبه معارك هوميروس فى الياذته . وأخرج من دراستى الى أن أدب المتنبي لم يكن أدب الحكمة والمديح فحسب ، بل كان صورة حية لهذا « الادب القومي » الذى تكاد ترتفع دعوته الصارخة فى هذه الايام على « الادب العالمى » . وانه من الزراية بأدبنا القديم ان نقف عند هذه النظرة الضيقة التىلاترى فى أغراض الشعرالعربيسوى المديح والغزل والنسيب والرثاء والفخر . مع ان قليلا من البحث فى شعرالمتنبي يكشفنا علىمنازع قوميةحية تنبثق من قصائد المديح ، التى تجمع بين نظرته الانسانية الشاملة ، وعاطفته العربية الزاخرة . ومن الخبل أن نذهب مع البعض الى أن الادب القومى عرض زائل والادب العالمي جوهر خالد . فخلود الادب العالمى ذى النزعة الانسانية لايجرد الادب القومي منطابعه وقوته وأثره الواضح فىتصوير منازع الأمم تصويراً يظلبارز الاثر مهماتصرمت السنون والاجيال . وهذا الادب يشغل مكانه السابق فى نهضات الشعوب وكفاحها . وهذه النزعة الهتلرية قد قضت أو كادت على كل أدب لا يصور النزعات القومية . ومثل هذا تجده فى تركيا الكمالية وفى ايطاليا الفاشيستية . والمتنبي الشاعر الذى كان يتخذ المدح وسيلة للتحدث عن

نفسه وتصوير الوان الانتكاس فى عصره ، والذى كان يرسل آراءه السديدة فى طباع البشر ، كان من ناحية ثانية ، ينضح عن نزعة قومية صارخة . وهذا ما يجب أن يلتفت اليه الشباب فى دراستهم شعر المتنبي . ودراسة شعره كدراسة حياته تهدى الشباب الى الكثير من هذه الشكوك التى تعترضهم فى كفاح الحياة . وشكوك الشباب فى عصرنا هكذا كثيرة : أينكمشون فى عزلة أم يتصلون بالعالم ؟ أتكون حياتهم حياة ترف وميوعة أم جهد وجلاد ؟ أيغامرون أم يكتفون بالتافه الحقير من أغراض الدنيا ؟ ان شاعرنا الحكيم الذى كان يصرخ من اعماق قلبه :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

والذى كان يرتفع بنفسه وشعره عن حياة الوهن والضعف والميوعة الى حياة القوة والمغامرة والكفاح والنضال وما إلى ذلك مما يطويه هذا البيت الذى يمثل نفسيته الطامحة أصدق تمثيل :

يقولون لى ما انت فى كل بلدة   وما تبتغى ؟ ما ابتغى جل أن يسمى

والذى كان « يطلب من زمنه مالا يطلبه الزمن نفسه » ــ هذا الشاعر الذى يمثل فى حياته روح المغامرة والجرأة والرجولة القوية ــ جدير بأن يكون رفيق الشباب ومنارتهم الهادية فى كفاح الحياة ــ هذه الحياة التى تتطلب من الشباب فى عصرنا هذا الثقافة الواسعة والوثوق من النفس والمغامرة والتضحية فى سبيل فكرة ــ وهذه هى الرجولة الحقة التى يلمسها الشباب واضحة الالوان والخطوط فى حياة ابى الطيب وشعره

سامى الكيالي

من حكم المتنبي

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم فى شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ   ـه وان سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ   ـه ، ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدّ   هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من أن   نتعادى فيه وان نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا   كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى   لعددنا أضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الانـ   ـفس سهل اذا هو كانا

من نوادر ابى الطيب

بقلم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف

كان لابن جنى هوى فى أبى الطيب وكان كثير الاعجاب بشعره وقد شرحه شرحاً مطولا. وكان يسوؤه إطناب ابى على الفارسى فى الطعن عليه. واتفق ان قال ابوعلى يوماً: اذكروا لنا بيتاً فى الشعر نبحث فيه. فابتدر ابن جنى وأنشد:

حلت دون المزار فاليوم لوزر ت لحال النحول دون العناق

فاستحسنه أبو على واستعاده وقال: لمن هذا البيت فانه غريب المعنى؟ فقال له ابن جنى: هو للذى يقول:

ازورهم وسواد الليل يشفع بى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فقال: والله وهذا أحسن فلمن هو؟ قال للذى قال:

امضى ارادته فسوف له قـد واستقرب الاقصى فثم له هنا

فكثر إعجاب ابى على واستغرب معناه وقال: لمن هذا؟ فقال للذى قال:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فقال: هذا والله احسن، ولقد اطلت يا ابا الفتح، فمن هذا القائل؟ قال ابن جنى: هو الذى لايزال الشيخ يستثقله ويستقبح زيه وفعله. وما علينا من القشور اذا استقام اللباب!

قال ابو على: اظنك تعنى المتنبى؟ قال: نعم. فقال: والله لقد حببته الى ونهض ودخل على عضد الدولة، فاطال فى الثناء على ابى الطيب. ولما اجتاز به استنزله اليه واستنشده وكتب عنه أبياتاً من شعره

وقال ابن خلكان فى كتابه «وفيات الاعيان» نقلا عن شرح ابن جنى لشعر المتنبى ما نصه:

«سأل شخص أبا الطيب المتنبى عن قوله: «باد هواك صبرت أم لم تصبرا»

«فقال: كيف أثبت الالف فى (تصبرا) مع وجود لم الجازمة وكان من حقه أن يقول: «لم تصبر»؟ فقال المتنبى: لو كان ابو الفتح (يريد ابن جنى) ههنا لاجابك (يعنينى)

«وهذه الالف هى بدل من نون التا كيد الخفيفة. كان فى الاصل لم تصبرن ونون التأكيد الخفيفة اذا وقف الانسان عليها ابدل منها الفاً — قال الاعشى: «ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا» وكان الاصل فاعبدن فلما وقف أتى بالالف بدلا» اهـ

وقال ابو الفداء المؤرخ الحموى :

« قصد كافور الاخشيدى المتنبي ومدحه . وحكى المتنبي قال : كنت إذا دخلت على كافور انشده يضحك لى ويبش فى وجهى إلى أن انشدته :

ولما صار ود الناس خباً   جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه   لعلمى أنه بعض الانام

« قال : فما ضحك بعدها فى وجهى الى أن تفرقنا . فعجبت من فطنته وذكائه » اه

وروى بعضهم : أن المتنبي رحل الى العراق بعد خدمته لسيف الدولة بن حمدان فى حلب . فاقام فى البرية وسئل عن ذلك فقال : « ان بنى حمدان كدروا خاطرى فجئت اريحه »

وقال ياقوت الرومى الحموى فى كتاب « معجم الادباء » :

« ومن خطه (أى من خط ابى على ابن ابراهيم بن هلال الصابىء) حدثنى والدى ابو اسحق قال : راسلت أبا الطيب المتنبي رحمه الله فى أن يمدحنى بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ووسطت بينى وبينه رجلا من وجوه التجار . فقال : قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا أوجب على فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وان أنا مدحتك تنكر لك الوزير يعنى أبا محمد المهلبى وتغير عليك لاننى لم أمدحه . فان كنت لا تبالى هذه الحال ، فانا أجيبك الى ما التمست وما اريد منك مالا ولا عن شعرى عوضا . قال والدى : فتنبهت على موضع الغلط وعلمت أنه قد نصح فلم أعاوده » اه

وقال ياقوت أيضاً :

« وكان ابو العلاء المعرى يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبى نواس وابى تمام . وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه . فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه . فقال المعرى : لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلا قوله :

« لك يا منازل فى القلوب منازل »

لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه . وقال لمن بحضرته : أتدرون أى شىء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكرها . فقيل النقيب السيد اعرف ، فقال : أراد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

عيسى اسكندر المعلوف

حياة المتنبي

حياة متعبة ممزوجة بالدم

بقلم الاستاذ شفيق جبري

لم يخلق المتنبي لهذه الطبقات من الناس الذين يرغبون في هدوء الحياة ، ويفتشون عن راحة الفكر ونعمة البال ، فالعيون الرقيقة التي تؤذيها حمرة الدماء ، والآذان الناعمة التي يؤلمها صهيل الخيل وقعقعة اللجم وصرير العوالي، والقلوب اللينة التي تخشى مغالبة الأيام ومطاعنة الدهر، لاتأنس بشعر المتنبي ، ولا تنعم بمطالعته . ان هذه الطبقة من الناس التي تحاول أن تعيش في عزلة عن كل مغامرة في الحياة تفر من شعر المتنبي وتستوحش منه ، فان بينه وبينها آفاقا مديدة ، فقلوب أهلها لا تخفق خفقان قلبه . فان شعره يضجرهم ويقلقهم

قضى أبو الطيب حياته كلها في المغامرات والمنازعات فكانت هذه الحياة سلسلة شدائد . فالمتنبي لم يخلق للحياة الهادئة الذليلة وانما خلق لحياة الدوي ولحياة العز . فالذين يريدون أن تكون عيشتهم سالمة من كل ضيم بعيدة عن كل ذل ، فانهم يأنسون بشعر المتنبي فلا يبالون بتعب الاجسام وسفك الدماء ولا يحفلون بإبر النحل دون الشهد — خلق المتنبي لهذه الطبقة من الناس الذين يهون عليهم رزء جسومهم في سلامة عقولهم وأعراضهم فلا يحتملون الاذى ولا يغبطون الذليل ، يأخذون من هذه الدنيا مايمكنهم أخذه زاهدين في كل زق وفي كل قينة ، راغبين في الفتكة البكر وضرب أعناق الملوك . خلق المتنبي لهذه الطبقة في الأمم التي لا تكسب المجد الا من تضارب السيوف ومن سنان الرماح . خلق لهذه الامم التي تقاتل في سبيل العلى وفي سبيل السلم وتبني مملكتها على الاسل وتطلب حقوقها بالطعن والضرب لان الدنيا لمن غلب

هذه هي الحياة التي أعد لها المتنبي . انها لحياة ممزوجة بالدم بعيدة عن الهدوء والسكينة مملوءة بالقلق والاضطراب كلها نزاع وكلها غلاب . ان الحياة التي يريدها أبو الطيب انما هي حياة القوة : قاتل غالب ، هذا هو الهدف الأعلى الذي يرمي اليه المتنبي

ولكن هل عاش أبو الطيب هذه العيشة التي وصفها في شعره ؟ هل قلق هذا القلق ؟ هل اضطرب هذا الاضطراب في حياته ؟ أو على تعبير أدق — هل كان بين حياة المتنبي الخاصة وبين شعره شيء من التناسب ؟

لست أعلم حياة ملئت بالجهاد من اولها الى آخرها مثل حياة المتنبي . كان في أول أمره في

خشونة من عيشه ورقة من حاله يعوزه كل شيء ـ يعوزه الناعم من الملابس والكريم من المطايا ، فقد توفى ابوه فقيراً فضرب أبو الطيب فى منا كب الشام التماساً للرزق وجال فى البوادى والحواضر ، ولم يكن له من المطايا إلا النعل والخف ولا من اللباس الا القطن الخشن . ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين

وما زال على هذه الحال حتى اتصل بسيف الدولة فغرق فى مكارمه الباهرات فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ماعدا الخيل والجوارى والخلع والجوائز والاقطاعات . ولكن نعمة مثل هذه النعمة لم تنج أبا الطيب من حسد الحساد وكيد الكائدين لانه زاحم فى حضرة سيف الدولة غيره من الشعراء على هذه النعم حتى مات بعضهم حسداً . فلئن شكا أبو الطيب الحسد وهو فى خشونة من العيش فاخلق به أن يضجر من الحسد وهو يتقلب فى ظلال النعيم . فصعب حينئذ على المتنبي أن يواظب على باب سيف الدولة : الشعراء يحسدونه ويوقعون فيه ويضربونه ، وسيف الدولة يهزأ به ويعبث ، فانه لم يصن عرض المتنبي ولا سلمت نعمته عليه من المنة والاذى

ترك المتنبي سيف الدولة وانحدر الى دمشق ثم إلى الرملة واتصل بأميرها الحسن بن طغج فهدده جماعة علويون فما كاد يسلم من حاشية سيف الدولة حتى أثاره وعيد آخر فكأن بينه وبين المصائب صلة رحم

غادر الرملة وقدم على كافور الاخشيدى فامر له بمنزل ووكل به جماعة وأظهر التهمة له وطالبه بمدحه ثم وقعت الوحشة بينهما فوضع عليه العيون والارصاد خوفا من أن يهرب ، وأحس المتنبي بالشر ، ولم يخل أبو الطيب وهو فى ظلال كافور من جماعة كانوا يغضبونه ويوغرون صدر كافور ، فما أشبه ما كان يقع له وهو عند كافور بما كان يقع له وهو عند سيف الدولة من ابتغاء الغوائل به .

فلم يلبث بعد هذا كله ان عجل الرحيل فضرب فى البوادى متوجهاً نحو الكوفة . وتنكر له عبيده فى الطريق وفسدت نياتهم وأخذوا يسرقون الشيء بعد الشيء من رحله ولكنه نجا منهم إلى ان بلغ الكوفة . فتحركت نفس سيف الدولة فأنفذ اليه ابنه من حلب ومعه هدية وطمع فى رجوعه الى ظله ولكن أبا الطيب اعتذر من العودة إلى سيف الدولة خوفا من الوشاة

ثم ترك الكوفة وسار إلى بغداد فثقلت وطأته فى دار السلام على أهل الادب ووقع بينه وبين أبى على أخاتمى ما وقع ، ولما نجا من شر أبى على أصابه شر الوزير المهلبى وشر معز الدولة نفسه ونال شعراء بغداد من عرضه وتباروا فى هجائه وأسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه

فاتخذ الليل جملا وفارق دار السلام قاصداً الى حضرة ابن العميد ، فورد أرجان وأحمد مورده، ثم ترك ابن العميد وسار إلى أبى شجاع عضد الدولة. وكان الصاحب بن عباد طمع فى زيارة المتنى إياه باصبهان واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وكتب اليه يلاطفه فى استدعائه

وضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم المتنبي له وزناً ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده ، فاتخذه الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته وينعى عليه سيئاته

لم يعرج أبوالطيب على حضرة الصاحب وانما قصد عضد الدولة بشيراز فأنجحت سفرته وربحت تجارته بحضرته ووصل اليه من صلاته أ كثر من مائتى الف درهم . واستطاب المتنبي الاقامة ببابه ثم استأذنه فى المسير عنه ليقضى حاجات نفسه ثم يعود فأذن له وأمر بأن تخلع الخلع الخاصة ويقاد اليه الحملان الخاص وتعاد صلته بالمال الكثير . ولكنه لما سار من حضرة عضد الدولة ومعه ابنه محسد وغلامه ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب السمينة والآلات ـ تعرض له قوم من بنى ضبة فقتلوه بعد ان قاتل قتالا شديداً

هذه خاتمة حياة المتنبي

ولكنى لم ألخص هذه الحياة المتعبة إلا لأجعل صلة بينها وبين شعر المتنبي فاذا نظرنا فى طائفة من شعر المتنبي تبين لنا ان بين حياته الخاصة وبين هذا الشعر كثيراً من التناسب ، فمعظم شعر المتنبي يكاد يكون صورة هذه الحياة التى ملئت بالتعب والقلق والاضطراب . لم تكن الحياة فى نظر أبى الطيب حياة هدوء وراحة . فالذين يريدون أن يعيشوا هذه العيشة التى وصفها المتنبي ينبغى لهم أن يهيئوا أنفسهم لكثير من الجهاد . جاهد المتنبي فى حياته فزاحم ونازع وطاعن فكانت هـذه الحياة المملوءة بالجهاد والمزاحمة والمنازعة والمطاعنة ملء شعره ، فهو لم يصف هـذا النوع من العيشة إلا بعد أن جربه وقاسى أهواله ولقى منه مالقى . فالحياة التى يريدها أبو الطيب انما هى الحياة السالمة من كل راحة ومن كل ضيم ، وإذا وازنا بين حياته الخاصة وبين فلسفته فى الحياة وجدنا صلة وثيقة بين هذين النوعين . انه لم يذق الراحة كل عمره . وإنه لم يتحمل الضيم فى ظلال سيف الدولة ولا تحمله فى ظلال كافور ولا تحمله فى ظلال الوزير المهلبي ، فالمتنبي يعرض لنا فى شعره نمطا من تعب الحياة وجهدها ثم يضرب لنا مثلا لهذا النمط. أماهذا المثل فهو حياته الخاصة من مبادئها الى خواتيمها. علام نخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن فى سربه ؟. والمتنبى لم يخف الموت حتى فى الايام التى تفتر فيها الاعصاب ويميل فيها الانسان الى الهدوء . فقد قاتل لما تعرض له بنو ضبة القتال الجديد فلم يجبن ولم يهرب

ما أتعب حياة المتنبي !

دمشق
شفيق جبري
عضو المجمع العلمي العربي

اذا كنت ترضى أن تعيش بذلة   فلا تستعدن الحسام اليمانيا
فما ينفع الاسد الحياء من الطوى   ولا تتقى حتى تكون ضواريا

الوصف في شعر المتنبي

بقلم الاستاذ انيس مقدسي

« . . ان المتنبي برغم بعض سقطاته شاعر عظيم . نعم انه لم ينصرف خاصة الى الوصف ، ولكن شعره عموماً وصف بليغ لعواطفه ولمناقب ممدوحيه واحوالهم . وهو يمتاز بدقة التعبير عن الحركات والنزعات . . »

الوصف نوعان حسي وخيالي - تقف الى نهر في واد كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهق العظيمة فتأخذك روعة المنظر وتستفز فيك الميل ان كنت شاعراً الى وصف ما تراه من جمال وجلال . فاذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من الاشجار والكروم . وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاض الماء من بينها ، وقد ترسم ما يتراءى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه ظلال المساء أو أشعة الفجر . وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان هناك - قطعان البقر أو الغنم ترعى في المروج أو الحقول - ولعلك ترى الفلاح يحرث الحقل ، أو تنظر الى السماء فترى قطع الغمام يسوقها راعي الريح ، أو قوافل الضباب تنيخ فوق قمم الهضاب . يؤثر كل ذلك فيك فترسمه بألوان خلابة تستفز في القارىء عواطف الطرب ، وتحبب اليه رؤية تلك المشاهد ، وهو ما نسميه الوصف الحسي وهو أن تصور لسواك ما استفز فيك عوامل الاستحسان من المحسوسات على اختلاف أشكالها وألوانها

أما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات ، فاذا كان الشاعر واسع الخيال لا يقف عندما يقع تحت حسه فقط ، بل يتعداه الى مناطق يفتتحها أمامه الخيال ، فيجعل المرئيات أساساً لغير المرئيات ، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تأملات وذكريات . يقف مثلا في قلب الوادي فيسمع فيه نبضات الحياة ويمر أمامه على صفحات الماء حوادث التاريخ فيذكر الأمم الغابرة والوقائع الماضية ، ويستخلص من ذلك عبر الايام وعلاقتها بازدهار المدنيات واندثارها وما الى ذلك مما يستخدم فيه الحس توصلا الى صور الخيال البعيدة

واذا تأملت شعر المتنبي وجدته - كأكثر الشعر العربي - معنياً بالوصف الحسي دون الخيالي . ويتناول المناقب البشرية والمشاهد الطبيعية والعمرانية ووقائع الحرب والفروسية . وهو عادة دقيق جيد الديباجة يثير العاطفة ويبهجها

ولنتقدم الآن الى النظر في رسومه الشعرية المختلفة

المناقب البشرية

ويدخل فيها المديح والغزل والفخر. أما المديح (مدح الحى أو رثاء الميت) فذهبه فى أكثر قصائده ولا يخرج فيه عما ذهب اليه سواه من وصف مكارم الممدوح وذكر أعماله وصفاته، سداه ولحمته الاطناب والمبالغة، فالممدوح هو المثال الاعلى فى الشجاعة أو الكرم أو علو الهمة والاقدام على العظائم. ويصدق ذلك أيضاً على وصفه الغزلى. فان القطع الغزلية التى يصوغها مقدمات لقصائده تدور على وصفه لشدة الوجد وأثره فى المحب من سقم وسهاد وعناء وألم. وله فى ذلك ما يعد فنياً من الطبقة الاولى كقوله فى نظرة المحبوب:

يا نظرة نفت الرقاد وغادرت   فى حد قلبى ما حييت فلولا
كانت من الكحلاء سؤلى انما   أجلى تمثل فى فؤادى سولا

ومن بديع فنه فى هذا الباب:

بأبى الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عقولنا وقلوبنا   وجناتهن الناهبات الناهبا
حاولن تفديتى وخفن مراقباً   فوضعن أيديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه   من حر أنفاسى فكنت الذائبا

أما وصفه الفخرى فينم عن شخصية جبارة يجتمع فيها العنف والأنفة وطلب المعالى:

أهم بشىء والليالى كأنها   تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة   اذا عظم المطلوب قل المساعد
وأورد نفسى والمهند فى يدى   موارد لا يصدرن من لا يجالد

وفى فخره وصف دقيق لعواطف نفسه ولتأثير البيئة فيه، وقلما تجد شاعراً ترتسم خوالجه فى شعره ارتسامها فى شعر المتنبى. وما ديوانه ولا سيما الفخر والحكم فيه إلا مرآة تعكس لنا نفسية ذلك الشاعر الكبير ويبرزها فى أجمل الألوان وأشدها تأثيرا فى النفس. ولا يدانيه فى ذلك إلا ابو تمام، ولكن المتنبى يفوقه فى جمال التعبير وجلال المطلب ودقة النظر فى الحياة

المشاهد الطبيعية والعمرانية

ليس للمتنبى فى هذا الباب ما لسواه من الوصافين. والغريب انه اختبر حياة البادية والحضر فجاب السهول والجبال وتقلب فى شتى الامصار، ومع ذلك لا نرى ان مناظر الطبيعة والعمران من أنهار وبحار وجبال وقفار ورياض وقصور وآثار قد أثارت قريحته ودفعته الى التمتع بوصفها. فها هو مثلا يمر بلبنان ويرى ما فيه من شواهق ووهاد، وما وهبته الطبيعة من جمال يخلب الألباب فلا يذكره إلا عرضاً إذ يقول للممدوح:

بيني وبين أبى على مثله   شم الجبـال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها   وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها على مسالكى   فكأنهـا ببياضهـا سوداء

والوصف هنا جميل ولـكنه غير كاف للدلالة على ميل خاص فى الشاعر الى وصف الطبيعة وقد رأى العاصى والأردن وأقام على ضفافهما ، وهبط مصر وجاور النيل والأهرام ، وعرف دجلة والفرات واتحادهما بشط العرب العظيم ، ورأى الى كل ذلك كثيراً من المناظر الخلابة ، والمشاهد المثيرة للشعور ، وليس له مع كل ما عرف ورأى وصف يذكر إلا بضعة أبيات فى شعب بوان نظمها فى وصف طريقه الى شيراز . فقال منها :

غدونا تنفض الاغصان فيهـا   على اعرافها مثـل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عنى   وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منهـا فى ثيـابى   دنانيرا تفر من البنان
لهـــا ثمر تشير اليـــك منه   بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصل بهـــا حصاها   صليـل الحلى فى أيدى الغوانى

وقائع الحرب والفروسية

وهنا يبلغ شعره الوصفى أعلاه . فالمتنبى فارس ، خاض غمرات الحروب وعرف وقائعها ، فاذا وصف الـكتائب وعراك الأبطال ساق الـكلام على سجيته وجاء بالنظم الفائق . وهو يمتاز بتصوير الحركات وما يثيرها من نزعات ، فاذا وصف معركة لم يكتف بذكر عظمة الجيوش ومعداتها الحربية بل نظر نظراً دقيقاً الى حركات الفرسان ومضاء خيولهم كقوله :

تبارى نجوم القذف فى كل ليلة   نجوم له منهن ورد وادهم
يطأن من الأبطال من لا حملنه   ومن قصد المران ما لا يقوم
فهن مع السيدان فى البر عسل   وهن مع النينان فى البحر عوم
وهن مع الغزلان فى الواد كمن   وهن مع العقبان فى النيق حوم

ويجرى مجرى الوقائع الحربية أعمال البأس فى الانسان والحيوان . وفيها أيضاً يظهر ميل المتنبى الى وصف الحركة والنزعات الداخلية ، وأهم ماله فى ذلك تصوير الأسد فى قصيدته لابن عمار وقد أصاب ابن الأثير إذ فضله فى ذلك على البحترى فقال :

« إن معانى أبى الطيب أكثر عدداً وأسد مقصداً » وأساس هذا التفضيل أن المتنبى تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله فى انفراده وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلقه (من بخل وشجاعة) وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم انه

عطف على ذكر الانفة والحمية التي بعثت الاسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى »

واذا تأملت كلام ابن الاثير فى المتنبي رأيته محمولا على ما ذكرناه لشاعرنا من وصف الحركات والاحوال والنفوذ الى النزعات النفسية العميقة . فانظر كيف ينتقل من وصف هيبة الاسد ولونه وبأسه وعينيه ووحدته فى الغاب الى وصف حركاته فيقول :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه حتى تكون لرأسه إكليلا

حتى اذا شاهد ابن عمار مقترباً منه :

ألقى فريسته وبربر دونها وقربت قرباً خاله تطفيلا
فتشابه الخلقان فى اقدامه وتخالفا فى بذلك المأكولا

واليك هيئته وهو يستعد للوثوب :

ما زال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدق بالصدر الحجار كأنه يبغى الى ما فى الحضيض وصولا

ثم يلتفت الشاعر الى نفسية الاسد فيصف جرأته ـ بل تهوره وغروره ـ ويقرن ذلك بحكمة عامة قرناً يمتاز به شعره فيقول :

وكأنه غرته عين فادنى لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنيئة تارك فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا

ومن هنا يتقدم الى وثبة الاسد الهائلة ومصادمة الممدوح إياه حتى :

خذلته قوته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضت منيته يديه وعنقه فكأنما صادفته مغلولا

هذا الوصف الشائق الذى يتناول الحركات والاحوال ، وينفذ الى العواطف فيربطها برابطة الحكمة العالية ، ويجعل من الحوادث عبر الحياة الخالدة ، هو الاسلوب العالى الذى عرف به المتنبي فى تاريخ الادب العربي

والخلاصة أن المتنبي برغم بعض سقطاته شاعر عظيم . نعم انه لم ينصرف خاصة الى الوصف ، ولكن شعره عموماً وصف بليغ لعواطفه ولمناقب ممدوحيه واحوالهم . وهو يمتاز بدقة التعبير عن الحركات والنزعات ، ولا بدع فخياته كلها حركات ونزعات . وأحسب أنه لو انصرف الى وصف الطبيعة والعمران لكان له من القلائد ما يعد من مفاخر الشعر

انيس مقدسي

أبو الطيب في مصر

نبي في بلاد الوحى لا يوحى اليه

بقلم الاستاذ محمد شوكت التونى

كانت حالة مصر الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر على اسوأ ما تكون حالات الامم فى عصور الانحلال . فكانت الدولة العباسية قد طال بها الزمن وبدلت بعد منعتها تفككا وبعد عزتها ذلة . وأدبرت عنها الدنيا وهانت سطوتها . وولى الموالى الاقطار . وأى شر على الامم وأى المصائب على الدول أعظم من أن يحكمها العبيد ويسودها الاذلاء ؟

وكانت مصر قد آلت ولايتها الى محمد بن طغج بعـد ان وليها بعض الموالى أمثال أبى منصور تكين الخزرى واحمد بن كيغلغ ، ومحمد بن طغج وان لم يكن من الموالى، وهو من نسل ملوك فرغانة الا أنه لم يكن الكفء لولاية مصر وقد استقل بها بعد قليل عن الخلافة العباسية . ولما انتهى أمره بالوفاة وتولى بعده أبو قاسم انوجور ابنه وكان صغيراً قام كافور بتدبير الدولة عنه وكذلك لما توفى أبو قاسم وتولى أخوه ابو الحسن على وكان صغيراً قام بتدبير الملك كافور فلما مات أبو الحسن استقل كافور بالملك

من هو كافور

اختلفت أقوال الرواة فى كافور وقد اجمعوا أولا على أنه كان عبداً خصيا وأنه كان من موالى محمد بن طغج الاخشيد ولكن بعضهم أقذع فى ذمه ووضعه

على ان المعقول استقراء ومنطقا أن يكون كافور قد وصل الى تدبير الملك فى عهد الملكين الصغيرين عن جدارة حقة خاصة ، وقد روى ان محمد بن طغج قد ولاه قيادة الجيش الذى أرسله لمقاتلة سيف الدولة فى عام ٣٣٣ ﻫ عند مهاجمته لحمص ودمشق فى سوريا وكذلك تولى قيادة الجيش الذى حارب سيف الدولة عند ما استولى على دمشق فى ولاية أبى قاسم وانتصر على سيف الدولة

فليس عبداً عادياً ذلك الذى لا يجد محمد بن طغج من هو أكفأ منه لقيادة الجيش ومحاربة سيف الدولة . وليس عبداً عادياً الذى يدبر أمر مصر من ٣٣٤ ﻫ الى ٣٥٧ أى نحو ثلاث وعشرين سنة

اذن لا بد أن يكون كافور شخصية كبيرة فيها ذكاء ومضاء وقوة وهمة وطموح وحزم وعزم . والذى عرف عنه أنه قد كان معنيا بالعلم والادب . وكان من عنايته ان بعث فى استقدام « ابى الطيب المتنبي الى مصر »

استقدام المتنبي

وكان الثرى قد جف بين المتنبي وسيف الدولة إذ بقي يمدحه وهو ملازمه مدى تسع سنوات وكان يؤمل أن يقطعه ولاية يتولى أمرها . وقد كان المتنبي بعيد المطامع يرمى بآماله الى مدى واسع فى الحياة . فقد نشأ نشأة وضيعة . وكان أبوه سقاء . فتعلم ونبغ وتلفت حوله فلم يجد له نداً . وقيل ان اعجابه ببلاغته قد جعله يدعى النبوة وقيل إنه وضع كتاباً وجعله « قرآناً »

والى هذا الاعجاب بأدبه كان يظن نفسه قد خلق لمهمة اجتماعية سياسية فكان يكثر من وصف نفسه بالشجاعة . ومن قوله فى ذلك :

ومهمه جبته على قدمي ... تعجز عنه العرامس الذلل
بصارمي مرتد بمخبرتي ... مجتزىء بالظلام مشتمل
فى سعة الخافقين مضطرب ... وفى بلاد من أختها بدل

وكان لاعجابه بنفسه واعدادها لمهمة عظمى يصد عن مجالس اللهو وكان جاداً لا يعرف المجون ولا يتنزل الى ما يتنزل اليه غيره من الشعراء الذين أثر عنهم ذلك . كما أنه لم ينصرف الى الحب والغزل. وكان يكثر من الفلسفة والحكم فى غزلياته والعهد فى الحب أنه قليل الصلة بالحكمة والفلسفة !.

كل ذلك لانه كان يطلب مطلباً فى الحياة عظيما حتى قال :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة ؟ ... وما تبتغى ؟ ما ابتغى جل أن يسمى

فالذى جل أن يسمى من مطلبه اما النبوة أو الخلافة . أو على الاقل الامارة !

ولم لا ! وقد كان يرى الموالى العبيد تحكم البلاد وتقوم على ولاية أعمال الخلافة . وهل العبيد أجدر منه وأكثر كفاءة وأسمى همة وأشد استحقاقا وهو الذى لا يرى فى الوجود من يدانيه أو يماثله ؟ اذاً فقد طمع المتنبي من سيف الدولة فى أكثر من المال فلم يوفق فتركه إلى دمشق وكان بها رجل يهودى من أهل تدمر يعرف بابن ملك يقوم بأمور كافور الاخشيدى فيها فسأل المتنبي ان يمدحه فثقل عليه ولم يفعل . فغضب اليهودى وجعل كافور يكتب فى طلب المتنبي فكتب اليه بذلك فقال المتنبي : «لا. لا أقصد العبد وان دخلت مصر فما قصدى الا ابن سيده » ثم ذهب بعد حين الى الرملة فارسل اليه كافور رسولا يستقدمه . ولا ريب عندى ان هذا الرسول قد ألقى فى روع المتنبي أنه إذا سافر إلى مصر فان الطريق إلى ولايتها أو الامارة على ولاية منها قريب غير بعيد بدليل أن المتنبي بعد امتناعه الطويل أسرع بعد لقاء الرسول إلى لقاء كافور يحمل اليه الخرد من القصائد التى لا نظير لها فى المدح ويقول له كاذباً إنه كان مشتاقا الى رؤيته وكان يرجو هذا اللقاء :

أبا المسك ذا الوجه الذى كنت تائقا ... اليه . وذا اليوم الذى كنت راجياً

مع ان حقيقته قد كشفته وخديعته قد وضحت من مطلع قصيدته التى لاقى بها كافوراً إذ قال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا ان يكن أمانيا

فلقد كان الالم يعضه لاضطراره إلى الرحيل إلى كافور . ويحسب بينه وبين نفسه أنها سخرية من القدر أن يركب ذلك المركب الصعب فينزل من عليائه الى أسفل موضع فيمدح عبداً خصياً ! لا يدانى فى رأيه الثرى الذى تطأه قدمه بل إنه يجد فى ذلك الموت

أبو الطيب في مصر

نزل أبو الطيب وادى النيل ، كنانة الله فى أرضه ، حيث الجنة الغناء ، التى تنضر وجه الارض والتى تقف بسمة وضاءة فى فم الدهر . ووطىء الوادى الخصيب ، الزمردة الخضراء حيث الزرع واضح النضج قوى العود ، والنيل يشق الوادى ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يمثل القوة والعظمة والجمال والجلال والرحمة

الى هذا الجمال والجلال ذكريات ماض منسوجة على رقعة من بلاد الوادى . وعلى كل صفحة من صفحات التاريخ . كل هذا عاش فيه أبو الطيب المتنبي ورآه بعينه وتمتع به من نواحي حواسه ولمسه ، وتذوقه ، فما حرك له شاعرية ، ولا أثار منه العبقرية ، ولم ينبض له عرق فيه ، ولا اهتزت له نقطة من دمه ، ولا مال اليه شعاع من فكره ، ولا طوف حوله شارد من خياله !

فيا للعجب ! كيف تحيا العبقرية فى بلاد الوحى ولا تثور ولا تنتج ولا تفيض ؟ كيف يعيش البلبل فى الروض الانيق وتحت ضوء القمر ولا يرسل الاغانى صعداً فى السماء كالسحر أو أبلغ موقعاً ؟ كل هذا يفسره أمر واحد وهو أن المتنبي جاء الى مصر غازياً طامعاً مطالباً ولم يدخلها شاعراً . والدليل على ذلك أنه ترك كل ما فى مصر من جمال وجلال ، وكرس وقته لا قبح ما فيها ومن فيها . فقال فى كافور :

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حياتى ونصحى والهوى والقوافيا

ثم علا به الى اسمى ما يصل اليه وصف الكريم فقال :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

وفى هذه القصيدة لمح المتنبى بما فى نفسه من مطمع فقال :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

ويطول نفس ابى الطيب فى مدح كافور . ويقول كل يوم . فيقلب الحقائق ويهاجم قدرة الخالق سبحانه . ويغير من أصول الطبائع ويكذب . ويكذب ويضاعف كذبه . وهو أعرف الناس بأنه يكذب . ولكن الطمع يذل أعناق الرجال . ويظهر له المتنبى فى مظهر المهمل غير المكترث لمطلبه فيذكره بأمره مادحاً نفسه مزكيا كفاءته مبيناً فضائله . مقدماً مستنداته ! فيقول :

وانى لنجم تهتدى صحبتى به إذا حال من دون النجوم سحاب

وأصدى فلاأبدى إلى الماء حاجة وللشمس فوق اليعملات لعاب
وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى اليه شراب

والى هنا لا يطيق المتنبي سكوتاً ولا يستطيع صبراً ، فيصارح كافوراً بما فى نفسه قائلا :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

ولكن كافوراً لا يسمع لهذا النائح . فيقول له أخيراً قولة الخائب ويصيح به صيحة اليائس :

أمولاى هل فى الكأس فضل أناله فانى أغنى منذ حين وتشرب

غير أن كافوراً ظل « يشرب » ولم يصغ إلي غناء المتنبي فسكت هذا عن التغنى !

وجرى الواشون بالوشاية . وبلغ اليأس من نفس المتنبي منتهاه فلما وجد فرصة لدى أبى شجاع فاتك مدحه فأجزل له العطاء . ولكن ذلك لم يدمل الجرح الناغر . فهرب المتنبي من مصر. وقبل ان يخطو خطوة خارج حدود الديار اقذع فى هجو كافور بقصيدته المشهورة :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لامر فيك تجديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد

ويذكر أبو الطيب انه دخل مرة فوجد كافوراً حافياً ورأى شقوقا فى قدميه فقال قصيدته المعروفة . ولعله فى الحقيقة اخترع مسألة شقوق القدمين زيادة فى التشنيع والنكاية :

اريك الرضا لو أخفت النفس خافياً وما انا عن نفسى ولا عنك راضيا
أميناً واخلافا وغدراً وخسة وجبناً أشخصاً لحت لى أم مخازيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل اننى رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا

ويظهر انه تنبه إلى هذا الخلط . والاسفاف المشين وهذا الانحطاط الخلقى الفظيع . بين تناه فى المدح وإسراف فى الذم فأراد أن يعلل ذلك فقال :

أخذت بمدحه فرأيت لهواً مقالى للاحيمق يا حليم
ولما أن هجوت رأيت عياً مقالى لابن آوى يا لئيم

وهكذا ترى ذلك الشاعر العبقرى دخل مصر طامعا يسيل لعابه وتطوف برأسه أحلام . فنسى قدره ونزل عن مكانته وبذل كل مافى وجهه من ماء رخيصاً وأغمض جفنيه عما حواليه من مرئيات . واعتنق دين الكذب والنفاق فمدح كافوراً حتى جعله الهاً يصرف الريح والشمس . وجمل قبحه وحسن عيوبه وزين مساوئه . فلما لم يصب عنده مطلبه هوى به الى أحط ما ينزل القادح بخصمه فجعله اقبح من فى الحياة وألأمهم بعد أن سبق فجعله الكمال فى صورة انسانية !

محمد شوكت التوني
المحامى

الحياة الفنية في عصر المتنبي

ماذا بقى من آثارها

بقلم الاستاذ حسن محمد الهوارى

الامين بدار الآثار العربية

عاش المتنبي في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وكانت الدولة العباسية في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد بلغت من الحضارة أقصاها واستنفدت كل قواها حتى بلغت الغاية في جميع فروع الفنون والآداب والعلوم . ثم أخذت منذ أوائل القرن الرابع الهجرى تتفكك أجزاؤها ويستقل الولاة بالاقاليم النائية عن مركز الخلافة استضعافاً للخلفاء . وكان الامراء والوزراء بل والموالى يخلعون الخلفاء ويولون من يتوسمون فيهم الضعف ليبقى الامر في أيديهم ، فكانت الدولة العباسية في هذا العهد دولة عجيبة الوضع ، فبينما ترى الخليفة العباسي منكمشاً في قصره لا يملك من الامر شيئاً ترى أمراء دولة بنى حمدان على حدود بلاد الروم في حرب سجال . ومع استقلال أمرائها عن الخلافة فانهم كانوا يدافعون عن الاسلام باستبسال وشجاعة . وكان الخلفاء يعقدون لهم الالوية ويخلعون عليهم الخلع ويلقبونهم بسيف الدولة وناصر الدولة نظراً للوظيفة التى كانوا يؤدونها من مرابطتهم على الثغور ودفاعهم عن الدولة وقيامهم بالحروب توغلا في البلاد الاجنبية . ثم ترى دولة بنى بويه تستقل بفارس وقد خلع الخلفاء على أمرائها وقلدوهم الوزارة والامارة ولقبوهم بعماد الدولة



قطعة من نسيج في عهد الخليفة المطيع لله عليها سطران من كتابة كوفية أحدهما عكس الآخر ووسطهما شريط به صور حيوانات كتب في وسط كل منها كلمة « الملك » بخيوط من ذهب

وعضد الدولة وركن الدولة ، كأن الدولة كانت قائمة بهم وعليهم مع أنهم شيعة متعصبون لمذهبهم وهم أول من أحيى مأتم الحسين في يوم عاشوراء ، أحياه معز الدولة في سنة ٣٥٢ ھ فألزم الناس باغلاق الاسواق ومنع الطباخين من الطبخ ونصبوا القباب وعلقوا عليها المسوح وأخرجوا النساء منشورات الشعور يقمن المأتم على الحسين بن على رضي الله عنه ، فكان هذا أول يوم وقعت فيه هذه العادة الشيعية في بغداد على مسمع ومرأى من الخليفة العباسي . ثم ترى الاخشيديين في مصر شبه مستقلين يتوارثون الحكم في أبنائهم بأمر من الخليفة العباسي

عاش المتنبي فى هذا العصر المضطرب واضطر أن يتصل بأمراء هذه الدول المختلفة النزعات وأن يمدحهم بشعره إذا كانت علاقته بهم حسنة ، وأن يهجوهم إذا غضبوا عليه أو غضب منهم . وكان أول اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ثم بكافور الاخشيدى ثم بعضد الدولة بن بويه

وبالرغم من هذه الاضطرابات فقد كانت الحياة الادبية في أوج عزها وبلغ الشعر مبلغاً عظيما . وكان المتنبى زعيم عصره ، بل اتفق اهل الأدب على أنه لم ينبغ بعده في الشعر من بلغ شأوه أو داناه . .

وقد قال الشعر في عصر المتنبى الرفيع والوضيع . ويقال إن الخليفة العباسي الراضي بالله كان شاعراً محباً للعلماء وهو آخر خليفة له شعر مدون ومن شعره :



قطعة من الخشب مزينة بالرسوم البديعة ومنقوش عليها كتابات بالقلم الكوفي المتقن يرجع عهدها الى دولة بنى بويه
[من مجموعات دار الآثار العربية]

كل صفو الى كدر   كل أمن الى حذر
ومصير الشباب للـ   ـموت فيه والكبر
در در المشيب من   واعظ ينذر البشر
أيها الآمل الذى   تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا   ذهب الشخص والاثر
رب فاغفر لى الخطـ   ـئة يا خير من غفر

وقال الشعر في عصر المتنبي فقيه شافعي نظم قصيدة ذكر فيها اخبار العالم وقصص الانبياء وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك الى الآن ؟ فقال : ثلاثين الفاً ومائة بيت

ولم يكن نظم الشعر في هـذا العصر مقصوراً على الأمراء والمتعلمين بل ان امياً يجهل القراءة والكتابة اسمه نصر بن احمد ابو القاسم البصري اشتهر بالخبزأرزي لانه كان يخبز خبز الارز ليتكسب منه ، كان ينشد الشعر في دكانه الذي كان يخبز فيه الارز وكان الناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ويتعجبون من حاله ، ولجزالة شعره جمع له أحد الشعراء المعاصرين ديواناً عني بتدوينه ومن ظريف نظمه قوله :

رأيت الهلال ووجه الحبيب   فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما   هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورد في الوجنتين   وما راعني من سواد الشعر
لكنت اظن الهلال الحبيب   وكنت أظن الحبيب القمر

ولم يقف انتشار الشعر في هذا العصر عند هذا الحد بل قيل فى كل شيء وكتب على كل شيء، ومن الغريب ان نعثر لأول مرة على شاهد قبر من هذا العصر فى مجموعة الشواهد المحفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة نقش عليه بيت من الشعر بدلا من الآيات القرآنية التي كانت تختار مناسبة للمقام او للدعاية لتعاليم الدين الاسلامى مع ذكر الشهادتين ، وغير ذلك من عبارات جنائزية



جزء من سور الحرم الشريف بالقدس الذى عمره الامير على أبو الحسن بن الاخشيد سنة ٣٥٠ هـ

كالتذكير بالحساب والجنة والنار والوعد والوعيد والبعث وقيام الساعة ، نرى عوضاً عن هذا كله بيتاً من الشعر هذا نصه :

كل العباد على الحيوة حريص والموت كأس ليس منه محيص

وليس لي ان أتكلم عن الحياة الادبية في عصر المتنبي أكثر من ذلك بل أردت مما سبق ان امهد لكلامي عن الحياة الفنية الأثرية في هذا العصر

***

ان دراسة الفنون والصناعات في عصر المتنبي ليست هينة لانه لم يبق لنا من تحف هذا العصر وآثاره شيء كثير

والدول التي نريد أن نبحث مخلفاتها وآثارها هي الدول الثلاث التي اختلط بها المتنبي وعاصر امراءها وهي دولة بني حمدان والدولة الاخشيدية ودولة بني بويه

دولة بني حمدان

عاشر المتنبي من امرائها سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) وكان ملكه يشمل حلب والعواصم ثم دمشق أخذها من الاخشيديين . وكان أخوه ناصر الدولة على الموصل والجزيرة . ولم يبق لنا الزمن من آثار هذه الدولة إلا قطعاً من عملة عليها اسم سيف الدولة ولكن المؤرخين يقولون ان سيف الدولة بنى داراً بظاهر حلب اعظمت فيها النفقة نزلها امبراطور الروم بعد احدى الوقائع التي انكسر فيها سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ وأخذ منها ثلثمائة وتسعين بدرة دراهم ومن السلاح ما لا يحصى ثم نهبها وأحرقها وأحرق بلاد حلب

الدولة الاخشيدية

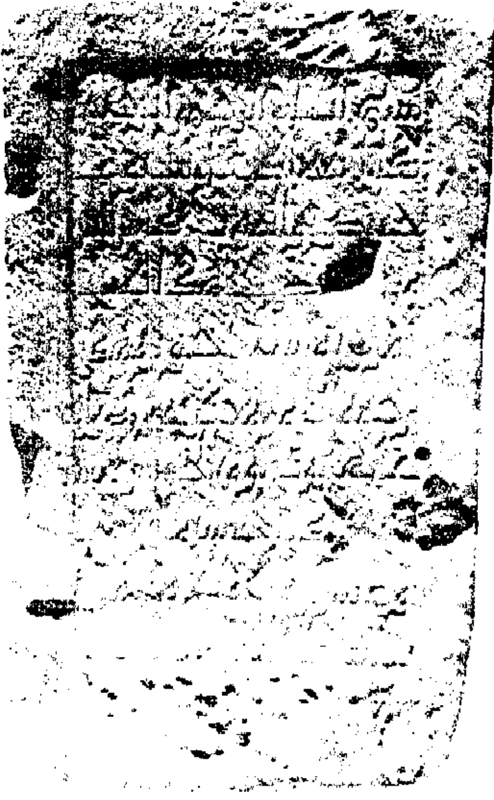
استقل الاخشيديون بمصر في سنة ٣٢٤ هـ وفي عهدهم لم تذق البلاد طعماً للراحة ، وقد حالت الحروب الداخلية التي وقعت في ذلك العهد دون ترقي الصناعة ، ولذلك لا نجد في التاريخ ذكراً لعمارة هامة شيدت في عهد هذه الدولة التي امتد سلطانها إلى الشام والحجاز . وقد نزل الاخشيديون في مبدأ أمرهم في مصر في دار الامارة التي كان بناها صالح بن علي أول ولاة بني العباس في مدينة العسكر ، وذلك لان القصر والميدان في القطائع الطولونية كان قد خربهما محمد بن سليمان قائد الخليفة العباسي المكتفي بالله عند ما أتى على أمراء الدولة الطولونية

ورغب محمد بن طغج الاخشيد ان يشيد في جزيرة الروضة بستاناً يسميه المختار ، فطلب تخطيط الموقع وتقدير النفقة فخطوا له بستاناً فيه دار للغلمان ودار للنوبة وخزائن للكسوة وخزائن للطعام وصوروه وأتوا به اليه فاستحسنه وقال : كم قدرتم النفقة ؟ قالوا : ثلاثين الف دينار فاستكثرها فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار فأذن في عمله ولما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم فقسط على جماعة وفرغ من بنائه فاتخذه الاخشيد متنزهاً له وصار يفاخر به أهل العراق

ومن العمائر التي ذكرها التاريخ للاخشيديين في مصر اصلاحهم جامع عمرو في سنة ٣٢٤ هـ

وفي سنة ٣٤٦ هـ بنى كافور الاخشيدي داراً على بركة قارون (موضعها الآن شارع بالبغالة) أنفق عليها مائة الف دينار ولكنه انتقل منها بعد ان سكنها بضعة أيام لوباء وقع في غلمانه من بخار البركة

كل ذلك اندثر ولم يبق له أثر وكل ما بقى من تحف من عهد هذه الدولة في مصر هي قطع من خزف ذي بريق ذهبي عثر عليها في أطلال مدينة الفسطاط زخارفها بين الطولونية والفاطمية رؤى اعتبارها من مصنوعات هذا العهد لان صناعة الخزف ذى البريق الذهبي عرفت في مبدأ الامر في عهد الدولة الطولونية وترقت إلى ان بلغت غايتها في عهد الدولة الفاطمية . فمرت أثناء تقدمها على الدولة الأخشيدية . وفى قطع الخزف التى عزوناها الى هذه الدولة زخارف تبين مرحلة الانتقال من العصر الطولوني الى العصر الفاطمى كما اننا نرى امضاء الصانع على قاع صحن واسمه « رمضان »



شاهد مؤرخ سنة ٣٢٤ هـ ، نقش عليه بيت من الشعر بدلا من الآيات القرآنية ونص المكتوب هو :
(١) بسم الله الرحمن الرحيم
(٢) كل العباد على الحيوة (٣) حريص
والموت كأس ليس (٤) منه محيص
هذا قبر (٥) مرونة ابنت اسحق بن مهدي
(٦) رحمة الله ومغفرته ورضوانه (٧) عليها
توفي (كذا) يوم الخميس لخمس (٨) (كلمتين) ذي الحجة سنة أربع (٩) وعشرين وثلاث مائة

وقد عثرنا فى السنين الاخيرة على عدة قطع من المنسوجات عليها أسماء الخلفاء العباسيين اكثرها من عهد المطيع الذي كانت الدولة الاخشيدية في عهده تحكم مصر ، ومكتوب على بعض هذه القطع انها صنعت في بعض المدن المصرية كما ان الكثير منها حوى زخارف ونصوصاً بالقلم الكوفي المطرز أو المنسوج بالحرير وأحيانا بالذهب . ومن أحسن المنسوجات التي من عهد هذه الدولة قطعة من النسيج عليها سطران بالخط الكوفي أحدهما عكس الآخر يتضمنان اسم المطيع وألقابه ويحصران بينهما شريطا به صور حيوانات كتب في وسطها كلمة « الملك » بخيوط من ذهب

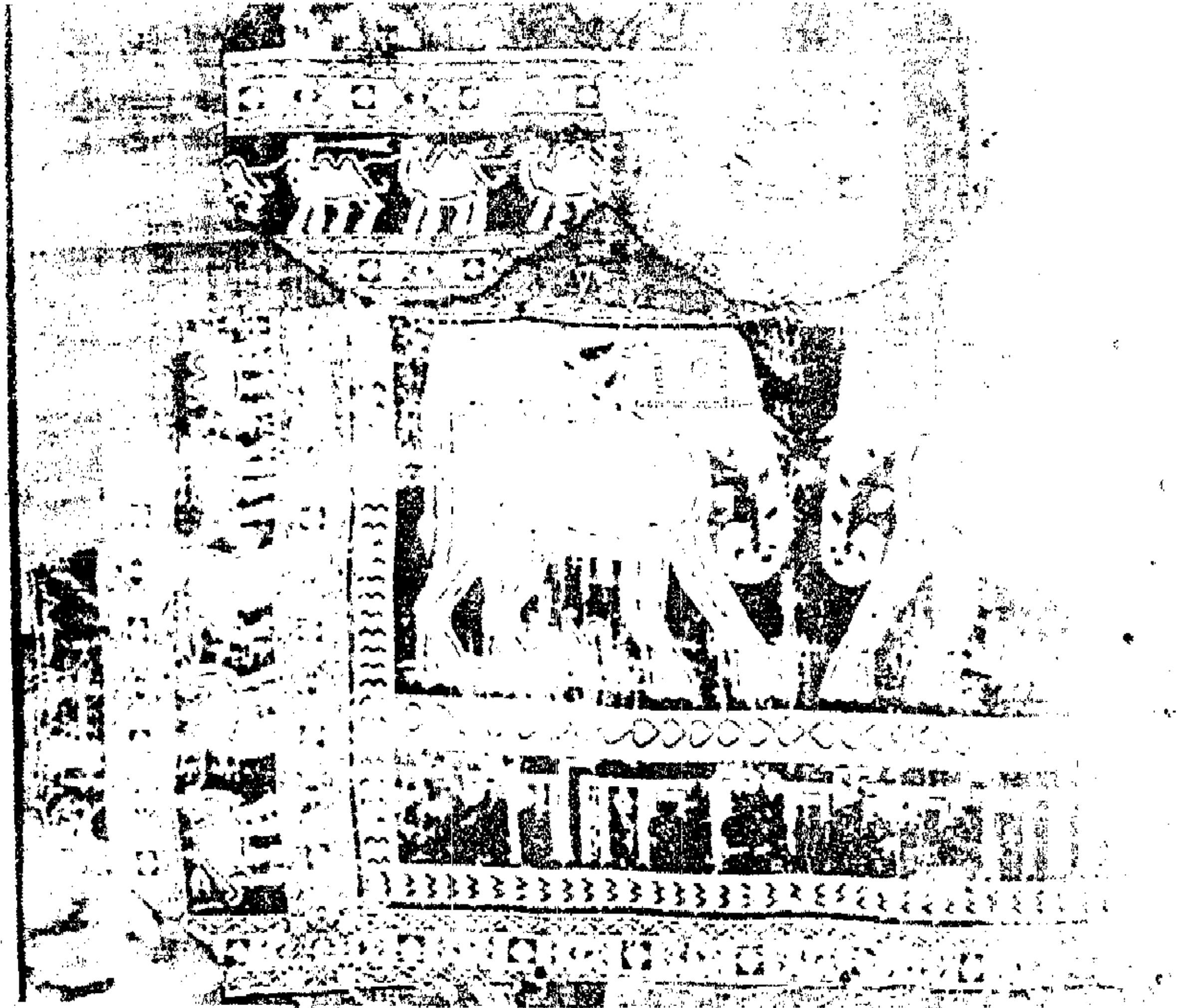
والأثر الثابت الوحيد الباقي من عهد الدولة الاخشيدية هو جزء من سور الحرم الشريف بالقدس عمره الأمير على أبو الحسن الاخشيد فى سنة ٣٥٠ هـ ونقش عليه بالخط الكوفي قليل التشجير البارز الملفوف اسمه واسم الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدي وأسماء من تولوا العمارة والنقش في هذا التعمير . ويظهر ان السبب فى اصلاح هذا الجزء من السور هو ان الاخشيديين مدفونون في القدس بالقرب من هذا الموضع

وقد شاهدنا في جبانة المعلى بمكة المشرفة عدة شواهد قبور من حجر البازلت الاسود منقوش عليها كتابات بالقلم الكوفي الجميل من عهد هذه الدولة أيضا

دولة بني بويه

يقول أحد المؤرخين إن معز الدولة بن بويه شرع في سنة ٣٥٠ ه في بناء دار هائلة فى بغداد وأخرب لاجلها دوراً وقصوراً وقلع أبواب الحديد التي كانت على أبواب مدينة المنصور والزم الناس ببيع أملاكهم ليدخلها في البناء ونزل في الاساسات ستة وثلاثين ذراعا فلزمه من الغرامات عليها الى أن مات ، ثلاثة عشر الف الف درهم وصادر الدواوين وغيرها . وكان كلما حصل له شيء أخرجه في بنائها وقد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة ولم يبق لها أثر

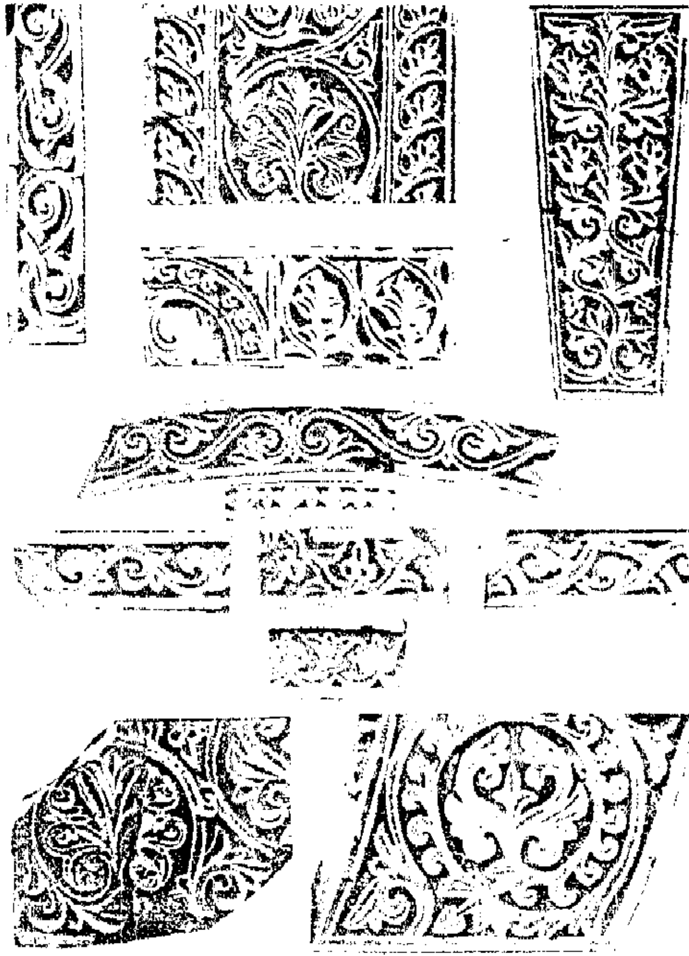
وزار عضد الدولة بن بويه مدينة برسوليس التي بدأ انشاءها دارا الاكبر فاعجب بها واحضر من قرأ له ماعليها من نصوص قديمة ثم أمر فنقشوا أسفل الكتابة بالخط العربي ما نصه « حضره الأمير ابو شجاع عضد الدولة أيده الله في صفر سنة أربع واربعين وثلثمائة . وقرىء له ما في هذه



قطعة من نسيج الحرير عليها صورة فيلين أحدهما يواجه الآخر وقد كتب تحتهما « عز واقبال للقائد أبو منصور بختكين أطال الله بقاءه » في بلاد خراسان (محفوظة بمتحف اللوفر)

الآثار من الكتابة قرأه علي بن السري الكاتب الكرخي وحرر سعيد الموبذ الكازروني »

وعرض في معرض الفن الفارسي الذي انعقد بلندن في أوائل سنة ١٩٣١ بعض حشوات من خشب عليها كتابات من عصر دولة بني بويه تضمنت نصوصا شيعية ومدحا في أهل بيت رسول الله . وقد حازت دار الآثار العربية بعض هذه الحشوات المزينة برسومات متقنة والنقوش عليها كتابات كوفية تتضمن اسماء بعض أمراء دولة بني بويه



صور بعض الأحجار المنقوشة التي عثر عليها بين اطلال مدينة الزهراء بالاندلس

ومما لانزاع فيه أن حالة الفنون والصناعات في غير هذه الدول الثلاث من الامبراطورية الاسلامية كانت في ازدهار ونمو ، وفي هذه الأيام بدأ عبد الرحمن الناصر بناء مدينة الزهراء . ويقول أحد المؤرخين : « بينما كان الشرق في نزاع واضطراب كان الغرب في هدوء وسكينة فبنى الناصر لدين الله الاموي مدينة الزهراء وكان منتهى الانفاق في بنائها كل يوم مالا يحد. كان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية . وأهدى له ملك الفرنج أربعين سارية من رخام ، وأما الوردي والأخضر فمن أفريقية ، والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك ، والكل بالذهب المرصع بالجوهر ، وبقوا في بنائها ست عشرة سنة . وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس يومئذ خمسة آلاف الف واربعمائة الف وثمانين الف درهم »

وبين هذه المدينة وبين قرطبة اربعة أميال وطولها الف وستمائة ذراع وعرضها الف وسبعون ذراعا ، ولم يبن في الاسلام أحسن منها لكنها صغيرة بالنسبة إلى المدائن . وكان سورها ثلثمائة برج

وعمل ثلثها قصورا للخلافة وثلثها للخدم وثلثها الثالث بساتين . وقيل إنه عمل فيها بحيرة ملأها بالزئبق . وقيل إنه كان يعمل فيها الف صانع مع كل صانع اثناعشر اجيرا . وقد احترقت هذه المدينة وهدمت في حدود سنة اربعمائة وبقيت رسومها وسورها

وقد كشفت اطلالها في أوائل القرن الحالى وعثر بينها على قطع من الاحجار منقوشة نقشا جميلا ، واجزاء من أوان خزفية ذات بريق ذهبي عليها رسومات وصور طيور وحيوانات شبيهة بالخزف الطولوني في مصر

وكانت الصناعات في اقصى البلاد الاسلامية شرقا مزدهرة خصوصا صناعة النسيج في فارس وخراسان ، وبمتحف اللوفر قطعة من الحرير مرسوم عليها فيلان احدهما يواجه الآخر ، واسفلهما سطر بالخط الكوفي يتضمن اسم أحد القواد المسمى بختكين وقد ورد ذكر هذا القائد في حوادث سنة ٣٤٩ ﻫ في كتاب تجارب الامم لابن مسكويه قال عنه ان امير خراسان عبدالرحمن ابن نوح قتل أحد قواده العظام واسمه بختكين في هذا العام

ولا يبعد أن يكون هو المنقوش اسمه على هذه القطعة من النسيج كما أن هذه القطعة هي بلا مراء من صناعة خراسان التي اشتهرت بصنع المنسوجات في عهد الدولة العباسية واشهرتها وتأثرها بفنون الصينيين قيل عنها إن زائر عاصمتها مدينة مرو يشعر أنه في بلد من بلاد الصين لكثرة ماكانت تصنعه من منسوجات

وليس لنا في النهاية إلا أن نقول هاهي ذي بعض التحف الفنية التي وصلت الينا من عصر المتنبي ، وهي على ضآلتها شاهد صدق على ان الحضارة الاسلامية لم تكن زاهرة في الحياة الأدبية فحسب ، بل وفي الحياة الفنية أيضا

حسن محمد الهوارى







قطع من خزف ذي بريق ذهبي عثر عليها في اطلال الفسطاط عليها زخارف رؤي اعتبارها من عهد الدولة الاخشيدية . ويرى في أحد الصحون امضاء الصانع المسمى « رمضان »

جنون العظمة في المتنبي

مرض نفسي - فضيلة خلقية

« كان المتنبي ذا كبرياء وترفع ، وكانت له دالة على الملوك والامراء الى حد لم يكن لغيره حتى نسب الى الجنون » . هكذا يقول المؤرخون . وقد جعل الاستاذان عبد الرحمن صدقي ، وطاهر احمد الطناحي هذه الناحية في المتنبي موضوع مناظرتهما ، فرأى الاول ان جنون العظمة عند المتنبي مرض نفسي ، وان مبعث ذلك الصلف والخيلاء . ورأى الثاني ان هذه الصفة فضيلة خلقية وانها لم تكن صادرة عن صلف وغطرسة ، بل عن اعتداد بقيمة الفن ، واحتفاظ بالكرامة

مرض نفسي

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

قال هيني شاعر الالمان بأسلوبه اللاذع الصادق فى احدى رسائله : « الانسان أزهى الحيوان كافة ، والشاعر أزهى بنى الانسان » . فاذا أضفنا الى ذلك اعتقاد العربى بأن أمته خير أمة أخرجت للناس عامة فكل من عداها أعاجم ، وان قبيلته من بين القبائل اكرمها خاصة ، حتى بلغ من العصبية أن صارت الانساب علماً له المقام الاول بين العلوم ، واذا أضفنا من الناحية الأخرى اعتقاده بفضل اللغة العربية على سائر اللغات ، وان أبناءها هم دون سواهم المطبوعون بالفطرة على الشعر ، فقد اجتمعت لنا من هذا جميعه صورة صحيحة ، أو هى أقرب ما يكون إلى الصحة ، عن جنون العظمة عند شاعر العربية الاكبر أبى الطيب المشهور بالمتنبي

كان ابو الطيب من أصل وضيع خامل، وأبوه الحسين يعرف بعبدان السقا . وكان فيما يقال سقاء بالكوفة يستقى على جمله لأهل محلة بها اسمها كندة . والمأثور عن أبى الطيب حرصه على تكتم نسبه ، وقد سئل فى ذلك فقال يلتمس وجه الحجة : « إنى أنزل دائماً على قبائل العرب وأحب ألا يعرفونى خيفة أن يكون لهم فى قومى ترة »

ولكنه مع هذا الذى رأينا من خمول نسبه ، ما برح منذ الحداثة شامخاً ، مصعراً خده ،

ينفخ شدقيه بالمفاخرة والتعاظم فلا يقف عند نفسه بل يتجاوزها الى ذكر جدوده :

لا بقومى شرفت ، بل شرفوا بى وبنفسى فخرت ، لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضـــاد ، وعوذ الجانى وغوث الطريد

وفى قصيدة أخرى على لسان أحد التنوخيين ، ينفى الكرم عن غير اليمانية وهم الأرومة العاربة التى اليها تنتمى فى القدم سلالات بينها شعبة شاعرنا الجعفى :

ومجدى يدل بنى خندف على أن كل كريم يمان

ولولا شعور المتنبى بتواضع نسب أبويه لما قنع بالاشارة الى عشيرته مرات قلائل ، وعلى هذه الصفة من الايجاز والتعميم ، ولما انفك يقرع الاسماع ويجلجل الآفاق بذكر آبائه والاشادة بضخامة حسبهم فى كل قصيدة ، بمناسبة وغير مناسبة ، ذهاباً مع مادرج عليه العرب من الفخر بالأنساب ، وما انطبع هو عليه من غلواء الكبر والتعالى على الخلق . وليس أدل على هذه الغضاضة المكتومة من طريقته فى تركيزه العظمة فى نفسه ، ثم استدراكه إلى ذكر قومه أنفة من الاستخذاء وخيفة أن يؤخذ سكوته عنهم تسليما بخفاء شأنهم وحطة قدرهم . وقد تقدم للقارىء فى البيتين السابقين مثال على طريقة الشاعر فى التركيز والاستدراك ، ونزيد عليهما بيتين من قصيدته الشجية فى رثاء جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما
وانى لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وطبيعى أن يكون لهذا التحرز عند ذكر الحسب ردة فعل فى ضمير صاحبنا ، وانتقاض بقدر ما يعانيه من كان فى مثل كبره من الحزازة والكبت . فانه ليعتاض مما فاته من تفاخر بحسبه ونسبه ، بالذهاب الى الشأو الأبعد فى الاعتزاز بنفسه ، والمغالاة بقدره ، والاستطالة على من واه . وليست تعوزنا الشهادة على ذلك فى ديوانه وفى سيرة حياته ، بل ان ذاك وتلك لا يشهدان على شيء إن خفيت دلالتهما على جنون العظمة عنده . فاستمع اليه يصف مقامه فى الناس وإربائه على الاكفاء وتميزه عن النظراء بما يجعله صنو الانبياء :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام «المسيح» بين اليهود
أنا فى أمة تداركها الله غريب «كصالح» فى ثمود

وفى قوله هاجياً :

يا لك الويل ، ليس يعجز «موسى» رجل حشو جلده فرعون

وهو يعلم من نفسه خيلاءها وعجبها فلا يصطنع المداجاة ، ولا يحتال باعتذار ، ويأبى له صدق إيمانه بنفسه وعمق يقينه إلا أن يصدع بقول لا جمجمة فيه بأن الكبرياء حقه لا منازع له فيه :

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهذا الاحساس المفخم تتردد أصداؤه فى كل قصيدة حتى ولو كان فى موقف العبرة أمام الموت كقوله عن نفسه فى مرثيته لجدته :

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

بل إنه ليقع فى دخيلة روعنا منه انه فى تسليمه هنا للقضاء لينطوى على مضاضة الرغم ، وان هذا الشطر الاخير منتزع منه انتزاعاً . فاننا نعرف الرجل متمرداً على كل سلطان ، مستخفاً بكل شيء ، وإن لنا من تصرفه كدعوى النبوة فى صباه ، وتركه للصلاة والصيام طيلة حياته ، ثم من مبالغاته الكفرية فى بعض تشبيهاته لممدوحيه ، ما يشعرنا منه ضعف العقيدة ورقة الدين . وهل يستشعر خشعة التقوى من يقول ذات يوم ولو فى مقام الفخر :

أى محل أرتقى ؟ أى عظيم أتقى ؟
وكل ما خلق اللـــه وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

والذى يروى عن تعاظم المتنبى كثير . ونحن لا نستكثره عليه ، وانما نستكثره منه لخروجه عن المألوف فى زمنه . فقد اشترط على سيف الدولة الحمدانى ملك حلب أول اتصاله به ، انه اذا أنشده مديحه لا ينشده الا وهو قاعد ، وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . ويعقب الرواة على ذلك بقولهم « فنسب الى الجنون » . وقد دخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وارتضاها ، وتوثقت بين الامير وشاعره أسباب الولاء والمحبة أعواماً . إلا أن ما بالمتنبى لم يك صيان حرمة وحفاظاً على كرامة ، بل هو الصلف ثقيل الوطأة والكبرياء الى غير حد . فغاظ ذلك سيف الدولة منه ، فكان أحياناً يجفو عليه اذا كلمه، ثم زادت الوحشة فوقعت النبوة وانصدع الشمل . ولم يكن هذا الذى حصل ليطامن بأوه ويكفكف من نعرته ، فانه لما سار عنه الى كافور الاخشيدى حاكم مصر كان يقف بين يديه وفى رجليه خفان وفى وسطه سيف ومنطقة ، وكان يركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق . وإذ كان على هذا المثال مسلكه من الملوك والأمراء وهم ممدوحوه يقصدهم للنوال ، فقد غنينا عن إطالة الكلام فى تعاظمه على سائر الناس ، وتعرضه لعداواتهم واعراضه عن شانئيه من رجال الدولة والمتأدبين ، وتعمده تجاهلهم . ولقد روى ابو على الحاتمى وروده بغداد ، وكيف كان ملتحفاً رداء الكبر والعظمة ، لا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزية عليه ، ويخيل له انه نسيج وحده، وان العلم مقصور عليه والشعر لا يعذب من غيره ، حتى ثقلت وطأته على أهل الادب بمدينة السلام

ويستطرد ابو على فيقول : « فتوخيت أن يجمعنا مجلس أجرى أنا وإياه فى مضماره ليعرف السابق من المسبوق ، فلما لم يتفق ذلك قصدت مجلسه ، فوافق مسيرى اليه حضور جماعة يقرأون عليه شيئاً من شعره ، فحين استؤذن لى نهض من مجلسه ودخل بيتاً الى جانبه . ونزلت عن بغلتى

وهو يرانى ودخلت الى مكانه ، فلما خرج إلى نهضت اليه فوفيته حق السلام غير مشاح له فى ذلك . وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لى عند موافاتى . ولبس سبعة أقبية ملونة ، وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس . فجلس واعرض عنى ساعة لا يعيرنى طرفاً ولا يكلمنى حرفاً . وكدت أتميز غيظاً ، وأقبلت أسخف رأيى فى قصده ، وأعاتب نفسى فى التوجه الى مثله . وهو مقبل على تكبره ، ملتفت الى الجماعة الذين بين يديه وكل منهم يومىء اليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير الى مكانى ، ويوقظه من سنة جهله ، فما يزداد إلا ازوراراً ونفاراً جريا على شاكلة خلقه . ثم توجه إلى فما زادنى على قوله : « أى شىء خبرك ؟ »

والمتنبى شاعر مقل لا يبذل المديح لكل من لقيه . ولقد جر عليه ترفعه عن مدح الوزير المهلبى والصاحب بن عباد عداوات مشبوبة اللظى ملحة النكير ، فكان الاخير بأصفهان لا حديث له إلا تتبع سقطاته والنعى على سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته واكثرهم تمثلا به فى محاضراته ومكاتباته ، وأغرى الاول به شعراء العراق حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه ، وتنادروا به وتماجنوا عليه . والمتنبى معرض عنهم سادر فى كبريائه . وكان الشاعر شديد الادلال على ممدوحيه . فكان يعطيه سيف الدولة كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ومع ذلك فقد يتأخر بالمديح عنه حتى يشق على سيف الدولة فيتنكر له ويحضر من لا خير فيهم يتعرضون له فى مجلسه بما لا يحب . وكان شاعرنا نادرة فى الحفظ مكباً على التحصيل منذ نعومة أظفاره ، وقد صحب الأعراب فى البادية وجاء بعد سنين بدوياً قحاً ، وكان يكثر من ملازمة حلقات الأدب ومكاتب الوراقين . ويروى عنه رجل من أهل الشام كان يتوكل له فى داره « . . . ثم جن الليل فقدمت له شمعة وأمر برفع دفاتر وكانت تلك عادته كل ليلة ، فجعل عينه الى الدفتر يدرس ولا يلتفت الينا حتى مضى من الليل اكثره . . . » . فترى انه الى جودة الملكة كان واسع الاطلاع ، محيطاً بأخبار العرب وأشعار المتقدمين . بصيراً بفنون الكلام ، ومع ذلك فشعره يكثر فيه التصعب والاغراب والتعاظل ، ولا غرو فتلك شنشنة معروفة عند الذين بهم مس العظمة ترفعاً عن السهولة وقرب المتناول ، وازدهاء بما يتكلف الناس فى دركهم من النصب :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وشاعرنا ككل شاعر مزهو بشعره فخور :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً

ولكن الشعر لم يكن قط عنده غرضاً لذاته . وانما كان هم الرجل فى العظمة ، فهو يطلبها عن طريق الشعر كما يطلبها عن غيره . ولقد تنازعه الشك فى جدوى القريض وهو فى أول الطريق ، فتردد فى المضى فيها لامترائه فى انها مؤدية الى ما يبتغيه « ما يبتغى جل أن يسمى » وقام بنفسه

أن يعدل عن حياة الدرس ومزاولة الشعر الى خوض المكاره والمغامرة فى الحروب :

أفكر فى معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادى
زعيم للقنا الخطى عزمى بسفك دم الحواضر والبوادى
الى كم ذا التخلف والتوانى وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى ببيع الشعر فى سوق الكساد !

ومع ان الرجل سبق أن ذاق الحبس حتى كاد يتلف واستهدف للردى فى مغامراته ، إلا انه لم يزل يحك فى صدره قبل الاعتقال وبعده نزوة الخروج على السلطان وطلب الرياسة . ولقد حاولها فى صدر أيامه غلاباً بالسيف والفتكة البكر ، وبالهبوات السود ، والعسكر المجر ، وتضريب أعناق الملوك على حد قوله . وله فى توعدهم ومقاضاته عروشهم شعر كثير :

أيملك الملك - والأسياف ظامئة والطير جائعة - لحم على وضم
من لو رآنى ماء مات من ظمأ ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فلما أعجزته الولاية غلاباً ، التمسها فى إدبار عمره سؤالا . فلم يصبر عند قدومه على كافور أن أشار الى ذلك فى أول قصيدة قالها فيه :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

ثم ضاق بالانتظار فصارحه أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من صعيد مصر . وكأنما كان يخشى أن يحول انتسابه الى الشعراء دون الولاية فاستدرك فى قصيدة أخرى :

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

فالرجل يقول الشعر وأى شعر ! ولكنه لا يحيا له ، أو لا يحيا له وحده . فهو شديد الامتلاء بنفسه ، مكظوظ بها إن جاز هذا التعبير ، وكأن ليس للعالم وجود خارجاً عنه . فلا شىء فى العالمين إلا وهو أحق به من كل انسان ، سواء أ كان هذا الشىء شعراً أو فروسية ، أو يتصل بساحة الملك او حرم النبوة . والناس أجمعون ملوكهم كعبيدهم طغام فى طغام :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم ، نيام
وشبه الشىء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

ويعود فى أبيات أخرى لأهل زمانه يتناولهم بالتصغير والتحقير :

أذم الى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم ، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم وأسهدهم فهد ، وأشجعهم قرد

ومع استخفافه هذا بالدنيا واحتقاره الناس ، فانه ما برح يطلب فيها الرياسة بينهم متجشما الأسفار متحيراً بين الاقطار ، حتى طاح رأسه وفكرة الملك تدور فيه . وهذا الجنون بالعظمة تلازم أصحاب المبالغة فى تصور الاضطهاد الواقع بهم ويركبهم وسواسه . فترى المتنبي لا يفتأ يذكر الحاسدين والشامتين والقائمين والقاعدين بالنقمة عليه والساهرين للكيد له والوقيعة به ، فهو أبداً فى حرب طاحنة مع قوى لا قبل لأحد بها ظاهرة وخافية حتى ليقول :

« أطاعن خيلا من فوارسها الدهر »

ونحب قبل الختام أن نشير الى ان هذا المرض النفسي عند المتنبي كان أظهر من أن يفوت نظر النقاد من العرب ، فقد قال الشريف الرضى فى صدد المفاضلة التى أولعوا بعقدها بين شاعرنا وأبى تمام والبحترى : « أما ابو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر » . وجاء فى مرثية أبى القاسم الطبثى له :

كان من نفسه الكبيرة فى جيـ ـش ، وفى كبرياء ذى سلطان

فضيلة خلقية

بقلم الاستاذ طاهر احمد الطناحي

كثير ممن تعرضوا للكتابة عن المتنبي رموه بالكبرياء والغرور ، واتهموه بالغطرسة والتنفج وجفاء الطبع ، حتى قال ابو على الحاتمى : « كان ابو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره ، و لا يقطف نوره سواه . ولا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزية عليه » . وزعموا أنه لكبريائه وخيلائه ادعى النبوة وهو فتى فى مقتبل الفتوة ، وطمع فى الأمارة والملك وترفع عن مدح غير الملوك والأمراء . وهم حينما يروون هذه الأقاصيص التى تتعلق بكبريائه ، والتى اكثرها موضوع افتعله حساده ليشوهوا سمعته ، ويخفضوا مكانته ، انما هم يصورونه فى حالة خلقية هى نقيصة النقائص فى الطبع ، وعيب العيوب فى الخلق . ولم يجد حساده فى زمنه سلاحاً يحاربونه به أقوى من هذا السلاح الذى يغرى به الملوك وذوى المطامع والسلطان . وقداتخذوا من هذه الصفة ـ صفة الكبرياء ـ التى قلبوا حقيقتها فيه ، وأنكروا فضيلتها عنده ، وسيلة استخدموها للدس عليه ، والغض من شأنه ، حتى إن أبا فراس الحمدانى ـ وهو على ما عرف فيه من أدب ورفعة محتد ـ لم يستطع أن يحاربه عند سيف الدولة بعد اليأس إلا من هذه الطريق التى تظهر المتنبي مدلا متغطرساً ممجوجاً ذا منقصة شنيعة ، وهى ليست عند

العارفين بطبائع العظماء بمنقصة أو عيب يحسب فى عداد النقائص والعيوب

فقد حكوا أن أبا فراس قال لسيف الدولة : « إن هذا المتسمى كثير الدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .. وليس ابو فراس واحداً فى مهاجمة أبى الطيب من هذه الناحية ، بل كل حساده هاجموه منها ، ووصموه بوصمة الكبر والجنون بالعظمة الى جانب رميهم إياه بالسرقة ، واتهامه بالاخذ من الشعراء ، وهم يعلمون ان هذه التهمة تجرح كبرياءه وتمحق خيلاءه ، وتقوض عظمته التى يغيظهم منها قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً فانما بشعرى أتاك المادحون مردداً

وأنت حين تتصفح حياة المتنبى ، وتدرس أخلاقه ، وتستقرى هذه الكبرياء فى شعره ، وفيما روى عنه فيما كان بينه وبين سيف الدولة ، وبينه وبين كافور أو عضد الدولة وغيره ممن اتصل بهم ، لاتجد أثراً للكبرياء الممقوتة التى تحط من قدر صاحبها ، وتلحقه بالمغرورين المتنفجين الذين يتعالون فى غير علو ، ويفخرون بغير ما سبب للفخر ، وانما تجد عظمة أدبية ، واعتداداً بالنفس وصوناً لكرامة الادب والاديب عن الصعلكة والمهانة فى مجالس الملوك والأمراء

فقد عرف المتنبى قيمة رسالته الفنية ، وعرف ما للفن من مقام فى حياة الجماعة ، فربأ به عن أن يكون ذليلا مهيناً ، وأراد أن يفرض على الناس احترامه وتعظيمه ، حتى إذا وجد نفسه وهو فتى بين قوم لا يفهمون فنه كما يريد هو أن يفهموه قال قصيدته المشهورة التى جاء فيها :

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

ولا يشكو هذه الشكوى إلا الفنان الذى يفهم قيمة فنه ، ويرى الوسط المحيط به لم يفهم هذا الفن أو هذه النبوة فى الفن التى تفرد بها فى قومه كتفرد صالح بنبوته فى ثمود . فهو انما يعتبر رسالة الفن كرسالة النبوة تخدم كل منهما الحياة البشرية من ناحيتها الخاصة بها . ومن أجل ذلك يجب تعظيمها وتعظم صاحبها ، وأن يعطى حقه من الاجلال والاكبار

وليس أبو الطيب بالشاعر الذى خدمت عظمته الظروف ، وساعده ضعف شعراء عصره فى الظهور ، فقد عاش فى عصر يعد أقوى عصور اللغة العربية الماضية ، وأسماها فى نواحى الادب والثقافة والتفكير . وكانت المائة الثالثة للدولة العباسية هى المائة الذهبية للعلوم والآداب فى حياة هذه الدولة . وقد نضجت فيها اللغة وعلوم التاريخ والادب والطب والفلسفة والجغرافية وغيرها

من العلوم والفنون ، وكان الملوك والامراء والوزراء من كبار العلماء والادباء . وكان سيف الدولة شاعرا وعضد الدولة شاعرا كما كان الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد من فحول الادباء . وكان من شعراء ذلك العصر ابو فراس الحمدانى ، والسرى الرفاء ، وابن نباتة السعدى ، والسلامى وابن هانىء الاندلسي وغيرهم . فاذا ظهر أبو الطيب على هؤلاء جميعاً ، بل على جميع شعراء عصره وشغلهم بمنافسته وحسده ، فان ذلك ليس من السهولة بحيث يبيح للكاتب أن يتهم المتنبي بالكبرياء والغرور ، ويجعل فضيلة الاعتداد بالفن ومعرفة قيمته والمحافظة على كرامته عيوباً مزرية به

ولو لم يكن فى خلق المتنبي إلا هذه الكرامة التى احتفظ بها لأدبه ، لكفاه فضلا أن يكون هو أول الشعراء بعد العصر الجاهلي الذين حافظوا على كرامتهم وفرضوا على الملوك والامراء أن يطأطئوا لهم الرءوس احتراما ويجلسوهم من مجلسهم خير مجلس

و مَن من الشعراء شرط على ملك من الملوك ألا يمدحه إلا وهو جالس ، وانه اذا دخل عليه لا يكلف بتقبيل الارض كما يفعل سائر رجال الدولة ؟

مَن من الشعراء غير المتنبي شرط ذلك على سيف الدولة ، فقبله ودخل تحت حكمه رغبة فى شرف هذا المدح الذى توجه به وخلد به ذكره على الدهر ؟

ثم مَن من الشعراء غير المتنبي شرط على كافور حين قدم مصر ألا يمدحه الا وهو متقلد منطقته وسيفه ، ولا يسير فى الطريق الا بمملوكين شاهرين سيفيهما عن يمينه وشماله ، فرضى هذا الاسود المتسلط بهذه الشروط ، وخضع لها أربع سنوات حتى حسد صاحبها ، وخشى ان يظهر عليه فى مصر وينتزع ملكها منه

لقد كانت هذه الكبرياء او الاعتداد بالكرامة مما يشرف الاديب ، ويعلى من مكانة الادب فى أعين الجماهير . وقد كان المتنبي لذلك يأنف ان يمدح ما دون الملوك والامراء ، وكانت هذه الصفة سببا فى حقد الوزير المهلبي عليه ، وحسد الصاحب بن عباد وخصومته وخصومة غيره من الطامعين فى شرف مدحه

وما مدح ابو الطيب المتنبي الفضل بن العميد الا لصداقته اياه وعلمه بأدبه وفضله . ومثله فى ذلك غيره ــ وهم قليلون ــ ممن مدحهم من الادباء وذوى الجاه الذين كانوا يشتهون ثناءه

وقد روى ان الشريف ابا القاسم طاهراً العلوى رجا ان يمدحه المتنبى ، وبعث اليه فى ذلك ، فأبى ، فأحال عليه الامير أبا محمد بن طغج . وكان قد وفد عليه المتنبى فألح عليه الامير وهو لا يزداد الا اباء ، ويقول : « ما قصدت غير الامير ، ولا امدح سواه » فقال له ابو محمد : « اذن فانظم قصيدة فى مدحى ثم اجعلها له » فقبل بعد صعوبة . . . قال محمد بن القاسم الصوفي : « فسرت أنا والمطلبي برسالة طاهر الى أبى الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا وعنده جماعة من

الاشراف ، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهر عن سريره ، والتقاه مسلماً عليه ، ثم أخذه بيده ، فأجلسه فى المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه ، وتحدث معه طويلا ثم أنشده ابو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة ، قال ابو القاسم الكاتب :

« كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ، ولا سمعت ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير ابى الطيب ! ! »

وفى هذا المديح يقول لطاهر العلوى :

حملت اليه من لسانى حديقة سقاها الحجا سقىَ الرياض السحائب

فانظر كيف تكون كرامة الاديب واعتذاره فى قبول الخلع والعطايا . فهو قد حمل اليه هدية بدية ، وقدم اليه حديقة من الفن تسمو على هذه الخلع والعطايا

وقد كانت الخلع والعطايا عادة سارية ، وهدية مألوفة للشعراء الذين يمدحون الملوك وذوى الجاه فى ذلك الزمان . ومع ذلك فان المتنبي كان يعتبر ما يأخذه من خلع وعطاء ليس سوى مقابل ضئيل لما يعطيه هو من فنه ، ويرى ان ما يخلعه على الملوك والامراء من أثواب الخلود افضل وأجل مما يخلعونه هم عليه ، ويهدونه اليه من بدر المال وربات الجمال

ولذلك كان يقول لسيف الدولة :

أبا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين النـاس ما انا قائل

ويقول له :

ولى فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

ويقول لعضد الدولة :

ليت ثنائى الذى اصوغ فدى من صيغ فيه فانه خالد (١)

لويته دملجاً على عضد لدولة ركنها له والد

ثم هو اذا عاتب ملكا او اميرا ، فقد كان يعاتبه معاتبة النظير للنظير ، فقد وشى به ابو فراس وبعض منافسيه عند سيف الدولة . وتأثر سيف الدولة بهذه الوشاية فنظم المتنبي قصيدته التى بدأها هذا الابتداء الجرىء :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالى اذاما اشتقت ابصرت دونه تنائف لا اشتاقها وسباسبا

ثم نظم قصيدته التى يقول فيها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

(١) يقول أتمنى أن يفدي شعري عضد الدولة لان شعري خالد . والدملج ما يلبس من الحلى في العضد . فمعنى البيت الثانى جعلت مدحي حلية للممدوح كما يحلى العضد بالحلية . وهو عضد لدولة ركنها ابوه

ان كان يجمعنا حب لغرته فليت انا بقدر الحب نقتسم
يا اعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وانت الخصم والحكم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا ارضاكم ألم
وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة ان المعارف فى اهل النهى ذمم

وانت تقرأ هذه الابيات فتشعر ان ناظمها كان يعتبر نفسه فى منزلة هذا الملك الخطير الذى كان ينشر سلطانه على حلب وما بين النهرين . بل كان يعتبر نفسه اكبر منه منزلة لأنه أديب ذو رسالة فنية يفنى سيف الدولة ، وتفنى أعماله ، وتبقى هى بروعتها وجلالها خالدة مدى الزمان

وقد كان لا يغرق فى المدح لانه كان يعتبر ممدوحه مثله أو أقل منه ، فلا يكثر فى مدحه ، بل كان يجود بالبيتين او الابيات ثم يفيض بالحكم ، ويستطرد الى وصف المشاهد والمعارك وضرب الامثال وشكوى الزمان والدراية بالاعداء - هذا بعد ان يكون قد جعل الجزء الاول فى كثير من مدائحه غزلا وتشبيباً بالنساء على عادة شعراء الجاهلية . وفى ذلك الغزل تراه ايضاً محتفظاً بكرامته صائناً لعزته ، لا يذل فى الشوق والهيام ، ولا يتقرب إلى المرأة الا من قبيل المجاملة ، فلا ينزل به الغزل الى الهوان الذى ينزل اليه ضعفاء الارادة من المتغزلين . فمنتهى ما يتقرب به الى المرأة ان يقول :

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك فى هذه الدنيـ ـا فان المقام فيها قليل
إن تريني ادمت بعد بياض فحميد من القناة الذبول

أو يقول :

ان التى سفكت دمى بجفونها لم تدر ان دمى الذى تتقلد
قالت وقد رأت اصفرارى من به وتنهدت ، فأجبتها المتنهد

وفى هذه الابيات يضع نفسه من محبوبته فى مكان من يستحق أن يقاسم الحب . وان يكون نصيبه منه عندها كنصيبها منه عنده - وهذا على ما نظن يتفق والدعوة للمساواة ! - على أنه لا يواصل محبوبته الا اذا واصلته . فاذا كانت تجود بالوصال ، فانه يجود به . وهو اذا رضى بسفك دمه ، فانما لأن محبوبته لا تعلم أن دمه هو الذى تسفك . ولو أنها علمت لما سفكت . حتى اذا رأته فى اصفراره أشفقت وتنهدت كتنهده ، وقابلته بمثل ما قابلها به . وفى ذلك ما فيه من الاعتداد بالنفس والحرص على الكرامة حتى فى الحب ، اما الذل فلا يقبله بحال من الاحوال :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز فى لظى وذر الذ ل ولو كان فى جنان الخلود

كذلك كانت كبرياء المتنبى . وكذلك كان ترفعه . وهو ترفع يشرف الأدباء حقا . وهو

فضيلة خلقية من اسمى فضائل الادب

وقد رووا عنه منقصة البخل ، ورموه بانه كان غاية فى الحرص والشح. وما أحسب إلا أن هذه الوصمة قد دسها عليه حساده دساً ، وافتعلوها افتعالا ، فان شجاعة ابى الطيب ، وعلو نفسه واستهانته بالحياة تأ , عليه ذلك . ولو كان بخيلا حريصاً على المال لما فارق سيف الدولة وزهد فى خلعه وعطاياه وكانت تعد بالآلاف . والحريص البخيل يضحى بكرامته وبأعز شيء لديه فى سبيل الحصول على المال . وما كان كذلك أبو الطيب

قال ابن زيد التكريسي : « بلغنى أنه قيل للمتنبى قد شاع عنك من البخل فى الآفاق ، ما قد صار سخرا بين الرفاق ، وانت تمدح فى شعرك الكرم ، وتتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك ، والبخل ينافى ذلك ، فقال : ان للبخل سبباً . وذلك انى أخذت يوماً خمسة دراهم . ومشيت فى اسواق بغداد فررت بصاحب بطيخ ، فتقدمت اليه وقلت له : بكم تبيع هذه البطيخات الخمس . فقال بغير اكتراث : اذهب فليس هذا من أكلك ، فتماسكت معه ، وقلت : ايها الرجل دع مايغيظ ، واقصد الثمن . فقال : ثمنها عشرة دراهم . فدفعت له الخمسة فلم يقبل ، واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبا الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له ، فقال الشيخ : ويحك بكم هذه . قال بخمسة دراهم ، فقال بل بدرهمين ، فباعه وحملها الى داره وعاد مسرورا الى دكانه . فقلت : يا هـــذا ما رأيت اعجب من جهلك . أعطيتك فيها خمسة دراهم فلم تقبل وبعتها بدرهمين محمولات ؟ ! فقال : اسكت هذا يملك مائة الف دينار . فقلت ان الناس لا يكرمون احدا اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار. وانا لا ازال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون ان أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار »

وهذه الحكاية ظاهرة الاختراع . على انها لو صحت لكانت مؤيدة لما نقوله من ان الرجل حين جرحت كرامته بهذا الذى فعله بائع البطيخ ، رأى ان الحرص على المال باب من ابواب الاحترام فحرص عليه . وهو اذا حرص هذا الحرص ، فلانه لم يكن له ريع يعيش منه سوى ما تفرضه العادة على الملوك والأمراء لامثاله فى هذا الزمان

اما بعد ، فهذه كبرياء المتنبي ، وهذا جنونه بالعظمة وهما فضيلتان فى جميع ظروفهما المحيطة بهما، وفى حالة صاحبهما الذى كان يرى للادب مكانة ممتازة ليست دون مكانة الامارة والملك . واذا كان الامراء والملوك قد ذهبوا بعظم السلطان ، وكثرة الاعوان ، فقد ذهب الادب بما لم يذهب به الملك فى جميع الاجيال بفخر سلطانه على النفوس ، وامتلاكه للقلوب من جميع الالوان ، وكان له فى كل نفس عون ، وفى كل قلب نصير ، لانه روح الحياة المعنوية التى تحفز الناس على النهوض ، وتحيي فيهم الآمال ، وتدفعهم الى طلب المجد

من حكم أبي الطيب

خليك أنت لا من قلت خلي | وإن كثر التجمل والكلام
وما كل بمعذور ببخل | وما كل على بخل يلام
تلذ له المروءة وهي تؤذي | ومن يعشق يلذ له الغرام

* * *

الحب ما منع الكلام الالسنا | وألذ شكوى عاشق ما أعلنا
ومكايد السفهاء واقعة بهم | وعداوة الشعراء بئس المقتنى

* * *

إنما أنفس الأنيس سباع | يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا | واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى | أن يكون الغضنفر الرئبالا

* * *

إذا غامرت في شرف مروم | فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير | كطعم الموت فى أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل | وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تغنى | ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

* * *

لا تلق دهرك إلا غير مكترث | مادام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ماسررت به | ولا يرد عليك الفائت الحزن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه | تجري الرياح بما لاتشتهي السفن

* * *

ذريني أنل ما لا ينال من العلا | فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة | ولا بد دون الشهد من إبر النحل

المتنبي

بين محاسنه ومبازله

بقلم الامير شكيب ارسلان

المتنبي احمد بن الحسين الكندى الجعفي من كبار فحول الكلام الذين لم تنجب الانسانية أمثالهم فى آلاف من السنين . ولو أن المتنبي ترجم ديوانه الى اللغات الاوربية بأقلام فصحاء يتقنون اللغتين المترجم منها والمترجم اليها ، لعرف الاوربيون من فصاحة العرب وتحليقهم فى سماء الادب ما هو فوق تصورهم الحالى . هذا برغم ما يكون بين الترجمة والاصل من الفرق العظيم الذى لا تفيد براعة الترجمة شيئا فى تلافيه . فالمتنبي لسان ابداع الاولين ولسان ابداع فى الآخرين . وهو شاعر سرمدى لا يختص بمصر ولا بعصر،فأين كانت الانسانية وأنى كانت ، فالمتنبي مثلها الاعلى فى الفصاحة والبلاغة .وكل عبقرى فى العالم قد يعطيه الناس زيادة على حقه،إما لافراط فى الاعجاب ، واما لاجل التأثير فى السامع ، فان الكتاب قد يحسبون حساب المسافة الفاصلة بين الحقيقة فى حد ذاتها وبين افهام السامعين أو القراء، فيتعمدون زيادة القوة الموصلة للحقائق حتى تصل سالمة ولا ينقص منها شيء فى الطريق ، وأما المتنبي فمهما قيل فيه فانه قمن ، وذلك لانه ليس هناك شاعر مثله اتسع فى فتوحات الكلام ، وتساوى فى فهم شعره الخاص والعام. ومما لا مشاقة فيه هو ان أبا تمام الطائى أجزل شعراً وأمتن لغة وأعلى نفسا،وان أبا عبادة البحترى اطلى نظماً وأرق نسجاً وأعذب لغة،فليس عند المتنبي قوة أبي تمام فى الجزالة ولا ملكة البحترى فى السلاسة ، ولكنه يعلو على الاثنين علواً كبيراً فى الامثال والحكم وجوامع الكلم ، فانه لا يوجد معنى تبحث النفس عنه لتجد له قالبا لائقا الا وجد الانسان عليه بيتا من شعر المتنبي . ففى هذا لا يباريه مبار ولا يصطلى له بنار ولا تأتى بمثله الاعصار ، لا فى شعراء العرب ولا فى غيرهم . وقد نشر الحاتمى رسالة قابل فيها بين معانى المتنبي المنظومة شعراً وبين أقوال ارسطاليس، فوجد طائفة متشابهة قال انها ان كانت من قبيل توارد الخواطر، فذلك مقام كبير لأبى الطيب وهو ان يتفطن لما فطن له شيخ الفلاسفة ، وان كان المتنبي اطلع على أقوال ارسطو ونظمها شعراً فهو أيضا فضل عظيم! ومن قرأ شعر المتنبي من أوله الى آخره اقتنع بأنه لم يكن يرجع فى اختراعاته غير المسبوقة وابتكاراته الناشئة عن محض السليقة الى أرسطو ولا الى غيره ، وانما كانت ابياته المشابهة لاقوال أبى الفلاسفة من قبيل توارد الخواطر وتوافق الضمائر . وكم يقع هذا بين العلماء الكبار

ولاسيما بين العبقريين الذين يتراءى للواحد منهم ما يتراءى للآخر ، كأن العبقرية شركة عنان وكأن النبوغ حصة شائعة كما يملكه الواحد يملكه الاثنان . وبالاختصار فلا يكاد يمر بالانسان يوم الا ويخطر بباله معنى من مناحي الحياة المتعددة يفكر فى ايراده فى بيت منظوم ، اذا وجد من ذلك واحداً عند الشعراء كلهم وجد بازائه خمسة عند المتنبي وحده . فهو ملجأ المتمثلين ومفزع المتأثرين. وكأن المستشهد بشعر المتنبي إذا شكا أو بكى أو حن أو طرب أو هاج أو غضب أو تحرك أو ركب أو أحب أو شرب ، وجد فى شعر المتنبي الغاية التى يشتفى بها اواره ، ويقر عندها قراره . فاذا قيل ان المتنبي رفيق كل مفكر وكهف كل متعمق وشيخ كل واعظ وحلية كل لافظ وعمدة كل خطيب وخزانة كل جوال فى المواضيع ، وإذا قيل ان العقل السليم والمنطق السديد لم يألفا فى ادمغة أهل الارض قاطبة ممن أوتى الحكمة شعراً والبيان سحراً مثل دماغ أبى الطيب المتنبي ، فلا يكون هذا القول مفرطا ، ولا يكون صاحبه مسرفا . وقد أجاد المتنبي ككل شاعر كبير فى مختلف الموضوعات ، فليس باب من أبواب القول الا وقد جاء فيه بالمعجز . غير أنه ربما باراه سائر الشعراء فى كثير من الفنون . وقد فاقه أبو تمام فى الرثاء وربما فى المديح ، وعلا عليه أبو العتاهية فى الزهد وأبو نواس فى المجون والحاجرى فى الغزل والبهاء زهير فى الرقة وابن سهل الاشبيلى فى دماثة العشق ، ولكن الحكمة هي المملكة التى أبت أن تعطى لغير أبى الطيب قيادها ، فجميع الشعراء هناك سائرون تحت لوائه يقال لكل واحد منهم : اطرق كرى . ويقال ذلك بحق



وقد عيب على المتنبي أشياء كثيرة فى شعره ذكرها جهابذة النقد ، ولست الآن من تعدادها بسبيل ، فقد عابوه فى اللفظ ، وقد عابوه فى المعنى ، وقد عابوه فى المناسبة . ومثل المتنبي من يعاب ، ومن يجتهد أهل النقد بأن يثبتوا له نقصا ، لان الحسناء هى التى لكمال حسنها يبحث لها الناس عن مكان لا يستوفى فيه التناسب حقه حتى يجدوا فيها ذاماً ، ولو كنت أملك من الوقت الآن ما يتسع لهذا الغرض لسردت من اعتراضات الادباء على المتنبي ما يستغرق كتاباً ، ويجوز ان أرد كثيراً من أقوال منتقديه ، وأن أؤيد البعض الآخر ، وأن آتى بما لم أعثر عليه فى الكتب . وغاية ما يقال فى هذا الباب أن المتنبي له غث يكاد الانسان لا يصدق صدوره عنه ، وانه ينزل فى الاحايين نزولا يكاد يوقع الشك فى نسبة كلامه اليه . وانه ليحار الانسان لشاعر مثله يقول ما يقول من المعجزات، ثم يقرنها بما يقرنها من المزعجات ، وهذا مما اتفق عليه أهل الادب فى نقد المتنبي ، ولكن الطامة الكبرى التى غطت على الجميع كانت قصيدته التى مطلعها :

« ما انصف القوم ضبة »

فان الذى يقرؤها ويتأمل معناها أو مبناها يقول انه قضاء وقدر نزل بالمتنبي ليس غير . ولو لم

يكن مقدراً عليه أن يسقط هذه السقطة لما تصور العقل أن عبقرياً يبلغ من البلاغة ما يحير النهى ، ويتفيأ من الفصاحة فى ظل سدرة المنتهى ، يعمد من نفسه الى شعر يسجل بالسقوط على قائله ، ويصير عليه سبة باقية على الدهر . هذا فضلا عن أن هذا الشعر الساقط كان سبباً فى حرمان البشر من تلك العبقرية النادرة ، فان المتنبي لقى حتفه فى هذه القصيدة ، ولقد حاول الناس أن يعتذروا عن المتنبي فى ارتكابه هذه الصلعاء التى قتلته مادة ومعنى ، فحاموا وما نزلوا ، ووردوا وما نهلوا . وعندى نسخة من شرح ديوان المتنبي لابى العلاء من ابدع النسخ خطا وأجودها ضبطا ، ولكنها لا تشتمل على جميع ديوان المتنبي بل على النصف الثاني منه ، وقد قرأت فيها خبر الحادثة التى نظم فيها أبو الطيب تلك الابيات الخاسرة فهو يقول ما خلاصته :

« كان ضبة يغدر بكل أحدتزل به أو أكل معه أو شرب ويشتمه . واجتاز أبو الطيب بالطف فنزل بأصدقاء له وسار خيلهم الى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم . فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه وليس سلاحه لهم الا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ، ويسمى أبا الطيب بشتمه ، وأراد القوم أن يجيبه بمثل ألفاظه القبيحة ، وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة وعلم أنه لو سبه لهم معرضاً لم يفهم ولم يعمل فيه عمل التصريح . فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة

قال ابن جنى : « ورأيته وقد قرأت عليه هذه القصيدة ينكر انشادها » وكان مثل أبى الطيب فى هذه القصيدة مثل بشار كما روى ابن مهرويه عن أبيه قال قلت لبشار يا أبا معاذ انك لتأتى بالامر المتفارق فمرة تثير بشعرك العجاج فتقول :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس اوقطرت دماً
اذا ما اعرنا سيداً من قبيلة   ذرى منبر صلى علينا وسلما

ثم تقول :

رباب ربة البيت   تصب الخل فى الزيت
لها سبع دجاجات   وديك حسن الصوت

فقال : « انما أكلم كل انسان على قدر معرفته ، فأنت وعلية الناس تستحسنون ذلك ، وأما رباب فهى جارية تربى دجاجاً وتجمع بيضهن ، فاذا انشدتها هذا حرصت على جمع البيض وهو أحسن عندها وانفق من شعرى كله ، فاذا انشدتها فى النمط الاول لما فهمته ولا انتفعت به » . فهذه صورة المتنبي فى هذه القصيدة ، ومن أنعم النظر فى هذه العبارات تبين له وهن العذر وضعف الدفاع ، فان عبداً كهذا ذكروا عنه ما ذكروا من لؤم أصله وبذاءة لسانه وولوعه بشتم الخلق ، لا يعلم الانسان كيف ان رجلا فى علو مقام المتنبي يقابل كلامه بمثله ، أفلا ضحك منه وهزأ به ، وقال لمن حوله دعوه

وشأنه ، وقال لمن أراده أن يجيبه على الفاظه القبيحة : « لم أكن لأنزل الى ساحة كهذه وان أجعل نفسي سفيها بازاء سفيه» . أو انه ان كان ولا بد من أن يجيب رفقته إلى ما اقترحوه ، فقد كان يمكنه وهو أمير الكلام وسلطان سلاطين البيان ، ان يأتي من الكناية بما هو أفعل من التصريح ، وأن يعرض تعريضاً يبلغ به الغاية بدون تصريح على اللفظ القبيح . وأحسن ما في هذه القصة قول ابن جني انه قرأ على المتنبي هذه القصيدة وهو ينكر انشاءها ، ويا ليته سير في الآفاق انها ليست له ، وأعلن منها براءته ، ولكن القول إذا برز ، كالسهم اذا نفذ ، وقد كان ينبغي للمتنبي ان يعلم أن مثله إذا قال شيئاً علق باسمه طول الدهر ، ولم ينفعه بعد ذلك عذر . وانما هي نازلة سبق بها اللسان لامر يريده الله فكان منها ان فاتكا الاسدي خال ضبة بن يزيد الضبي عند ما بلغته هذه القصيدة ، أخذ يترصد المتنبي . فبينما كان المتنبي راجعاً من عند عضد الدولة بن بويه الى بغداد عرض له فاتك الاسدي في عدة من أصحابه قيل انهم كانوا سبعين فارساً . اذ لم أزل اتذكر بيتاً في رثائه :

عدت على المتنبي من فوارسها سبعون في العد لم تنقص ولم تزد

وأورد الشيخ ابراهيم اليازجي في شرح والده للمتنبي رواية عن كتاب « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » للبديعي ، جاء فيها ان المتنبي مر بدير العاقول ونزل على أحد اصحابه . وكان صديقه هذا قد علم بأن فاتكا الاسدي يترصد المتنبي اخذاً بثأره من هجوه اخته في قصيدة ضبة ، وأن مضيف المتنبي أراد ان يرسل مع المتنبي رجالا يدافعون عنه اذا طرأ طارئ ، وكان المتنبي عظيم النفس كما هو معلوم ، فأبى ان يذهب معه من يحميه . ولما قال له صاحبه قد بلغني ان هذا الجاهل « فاتك الاسدي » يترصدك في الطريق اجابه المتنبي بقوله : « والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات ، وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا الى الماء يتفجر كبطون الحيات لامتنعوا عن الورود » . أو ما هو بمعناه مما يصح ان يقال أنه كلام فارغ برغم فصاحته ومتانة لغته

والخلاصة ان المتنبي بنخوته وعنجهيته أبى ان يرافقه احد وقال : « أأبذرق وهذا الجراز في عنقي ؟ » وعلى رواية لسان العرب : « أأبذرق ومعي سيفي ؟ » أي أيذهب معي من يحميني وهذا السيف معي لأن البذرقة هي الخفارة ، وهي كلمة فارسية معربة . فذهب المتنبي ومعه ابنه محسد وغلامه مفلح . ولما وصل الى النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول ، طلع عليه بنو اسد فأراد أن يفر فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وانت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال له : « قتلتني قاتلك الله » ثم كر راجعاً حتى قتل

وكأن المتنبي استشعر هذه الواقعة من قبل فانه قال في قصيدته التي مدح بها أمير طبرية :

والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا

فانه بعد ان رأى كثرة خيل بني أسد، وعلم أن لاقبل له بهم، لوى عنانه حتى يفر فجاء الغلام وهاج حميته واباه نفسه بتذكيره اياه بذلك البيت، فنسي الموت خوفا من أن يقال فيه أنه قال ولم يفعل، وكر على بني أسد وهو يعلم أنه مقتول لا محالة. وفي نسخة المعرى التي عندي يقول ما يلي: «وخرج من عند عضد الدولة حتى إذا قرب من بغداد وخرج متوجها نحو العراق فلما بلغ النعمانية خرج عليه قوم من بني أسد فانعهم عما كان معه، وأثخن فيهم القتل، فتكاثروا عليه فقتلوه وقتلوا ابنه محسداً في السابع والعشرين من شهر رمضان من سنة اربع وخمسين وثلثمائة» اهـ. وفي وفيات الاعيان يقول ان قتله وقع يوم الاربعاء لست بقين من رمضان وقيل لثلاث وقيل لليلتين. فان رجعنا الى رواية المعرى فيكون قتله وقع لثلاث بقين من رمضان. فقتله كان نتيجة كبره كما ان كبره كان سبب حرمانه طول حياته المناصب التي كان يصبو اليها. فقد كان الملوك يخافونه، وكان كافور الاخشيدي وعده بولاية فلما رأى تعاليه بنفسه وشدة بأوه، لم يوله عملا وكان قد طلب منه ولاية صيداء فلم يعطه اياها فعوتب في ذلك فقال: «ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعي المملكة مع كافور؟» ولولا شدة خنزوانته لما فارق سيف الدولة الذي كان يحبه ويبره ويصبر عليه وحسبكم القصيدة التي انشده اياها والتي مطلعها:

«واحر قلباه ممن قلبه شبم»

وفيها من الدلال والتسحب والعظمة والتكبر ما لا يعجب الانسان بعده من بقاء المتنبي طول حياته يرمي أغراض الحظ ولا يقرطس. ولقد أورد الشيخ ابراهيم اليازجي في العرف الطيب شيئا من خبر المتنبي يصح الرجوع اليه. وشرح والده لديوان أبي الطيب هو من الشروح التي يوثق بها، ولكنني رأيت مواضع أخذت عليه بها وذلك عند قوله:

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا الى عصره إلا نرجي التلاقيا

فانه جعل الجدود بمعنى الحظوظ وقال اننا ما ركبنا مطايا حظوظنا الى عصره الا لنتلقاه. وانما أرى أنه يريد ان يقول اننا ما تناسلنا من اصلاب اجدادنا حتى وصلنا الى عصره الا لنفوز بلقائه

وقد تختلف الانظار وتتباين الافكار. وللمتنبي اربعون شرحاً فيما يقال، وكم جاء فيها من الاختلافات في تأويل معانيه، وهذا أول دليل على علو مقامه، اذ لم يعهد ان شاعراً من الشعراء اهتم الادباء بشرح ديوانه كالشاعر أبي الطيب. وللاديب الراسخ الاستاذ شفيق جبري من دمشق كتاب عن المتنبي قرأت منه شذرات اعجبتني. وعلى كل حال فقد كان المتنبي مفخرة عربية كبرى تدين بها هذه الامة في التاريخ العام ولا يكابرها أحد وتحتج به لدى الانسانية بأجمعها ولا يقال لها: بالغت

جنيف ٢٥ ربيع الاول سنة ١٣٥٤ **شكيب ارسلان**

أبو الطيب المتنبي
تاجر من تجار الادب

بقلم الاستاذ سليم عبد الأحد

الشعر شعور تجيش به نفس الانسان فيعبر عنه بألفاظ ذات نبرات تنساق على أوزان مختلفة وأوضاع شتى . ولم يكن للشعر فى زمن الجاهلية روابط تقيده فلما جاء الخليل استنبط قيوداً حصر بها جميع أشعار العرب . قيل إنه مر يوماً فى البصرة فسمع دق المطارق بأصوات مختلفة وكان يسمع من دار « دق دق » ومن دار أخرى « دقق دقق » فبنى على الاول السبب الخفيف وعلى الثانى الوتد المجموع . ثم أخذ يفرع عليهما بقية الاجزاء التى استتمها واستنبط منها علم العروض

وليس معنى ذلك أن العرب لم تكن تقول الشعر قبل زمن الخليل بل لقد كانت تقوله بالسليقة . وفى الحقيقة أن الشعر بلغ فى الجاهلية أعلى المراتب ونبغ فيه أفراد سارت بذكرهم الركبان وكانت أشعارهم مضرباً للامثال . ولم يذكر التاريخ أمة بلغ الشعر عندها المنزلة التى بلغها عند العرب . فكان الشاعر العربى مرجواً ومخوفاً معاً يتوسل بشعره لنيل الحظوة عند الملوك والامراء . وبمرور الزمن أصبح لكل أمير شاعر يلازمه ويتغنى بمديحه ويرتزق مما ينفحه به من الاعطيات . ولعله ما خفض قدر الشعراء شيء مثل تلك الاعطيات . فبعد ان كان الشعر وسيلة للاعراب عن عواطف النفس وعما تجيش به القريحة أصبح وسيلة للارتزاق يستغله الشاعر فينطق به كلما الجأته الفاقة وسولت له نفسه ابتزاز أموال الغير . ولذلك وصف بعضهم الشعراء بالكذب والرياء وقالوا إن اعذب الشعر أكذبه . ونشأت طائفة من الشعراء تكيل الثناء جزافا لمن يستحقه ولمن لا يستحقه

ومن نكد الاقدار ان أكثر الشعراء المداحين كانوا اذا لم يكافأوا عن شعرهم انقلبوا الى الذم والهجو لان الشعر عندهم كان وسيلة لا غاية ولان العرض فى نظرهم كان فوق كل اعتبار آخر . فاذا خيب الممدوح ظنهم أطلقوا عليه سيلا من قوارص المنظوم وشهروا به تشهيراً . وقلما سلم من هذه النقيصة أحد من الشعراء الذين زاولوا صناعة المديح . وهذا مما يخفض قدر الشعر لان الشاعر الذى يعن فى الخيال الى ماوراء العالم المنظور ثم ينقلب مرتزقا يتاجر بشعره انما يبيع كرامته بالعرض

وغريب أن شاعراً فذاً كأبى الطيب لم يسلم من هذه النقيصة اذ لم ينزه قلمه عما يجب أن تعف عنه النفس بل وقف قريحته على مدح الامراء والاغنياء طمعاً فى نوالهم. فاذا أجزلوا له النوال أجزل لهم الثناء وإذا طووا عنه الكشح قلب لهم ظهر المجن وسلقهم بألسنة حداد . ذلك لان عرض الدنيا كان فى نظره كل شيء . فلا شرف ولا مجد ولا جاه ولا سلطان إلا لمن وفرت أمواله واتسعت ثروته.

وليكن خلقه كيف كان، وليكن طيب العنصر فما طيب العنصر بنافع له . أو ذليـل النفس فما الذلة بناقصة من متعته بالحياة . أو ليس هو القائل :

هما خلتان ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرا

وهو القائل أيضاً :

فلا ينحلل فى المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجـد كفه إذا حارب الاعداء والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وفى هذا ما يذكرنا بالقول المأثور عن نبوليون : « ان المال عصب الحرب » وعلى كل فقد كان حرص المتنبي على المال مضرباً للامثال ، حتى يقال إنه ما كان ينتقل من مكان الى مكان الا ويحمل معه متاعه وكنوزه . جاء فى الصبح المنبي عن لسان أبي نصر محمد الجمالى أن المتنبي وافاه ومعه بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والادوات الكثيرة لانه كان اذا سافر لا يترك فى منزله درهما ولا شيئاً يساويه

فشاعر مثل هذا يحرص على المال ويسعى إلى كنزه ما كان ليحجم عن تسخير قريحته للمدح أو الهجاء كيفما اقتضت الحال . وفى الحقيقة ان الشاعر فى ذلك العهد ما كان يرى من العار أن ينقلب من المديح الى نقيضه وقد كان يفعل ذلك انسياقا وراء المال وطمعا فى أعراض الدنيا . وقلما تجد بين القوم من كان يقصر قريحته على المديح فقط وينزهها عن الهجاء . وهذا دليل على ان النوال كان غاية أكثر الذين مدحوا الملوك والامراء فى ذلك العصر — كما فى غيره من العصور — وان المال هو الذى كان يملك على الشعراء أمرهم ويخرجهم عن الوعظ والحكم والانذار

وقد كان تزلف أبي الطيب الى كافور الاخشيدى طمعا فى المال والولاية . ألا تراه يعبر عن تلك الغاية بقوله مخاطباً كافوراً :

ابا المسك هل فى الكأس فضل أناله فانى أغنى منـذ حين وتشرب
اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

واسمعه يقول فى موضع آخر :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب ؟

وقوله : « املت منك » تعريض بوعد كافور اياه بالولاية وتذكير له

ومن سوء حظ المتنبي أنه بلغ من الشعر مرتبة قصر عنها فحول الشعراء فزاد ذلك فى حساده والناقمين عليه . ولشدة حبه المال وحرصه عليه انقلب غير مرة على أصدقائه الذين وصلوه وخلعوا عليه . فهجاهم ولم ينزه قلمه عن سلقهم بأقذع ما تجيش به قريحة الشاعر . وهذا من جملة ما أحفظ الكثيرين عليه حتى لقد نفى بعضهم الشاعرية عنه كابن خلدون وغيره ، مع ان أكثر علماء الادب

رجحوا شعره من حيث الصياغة على شعر أبي تمام والبحتري

والمجال لا يتسع لايراد جميع القصائد التي هجا بها المتنبي أصحابه وغير أصحابه ممن أحسنوا اليه وأجزلوا له النوال . فقد انقلب على بعض الذين أصاب منهم خيراً ولم ينج من ذلك أعز أعزائه ونعني به سيف الدولة علي بن حمدان العدوي صاحب حلب . فقد كان للمتنبي عنده في أول الامر منزلة سامية إذ حسن موقعه عنده وأحبه وقربه وأجازه الجوائز السنية . وكان يجري عليه كل سنة ثلاثة آلاف دينار خلا الاقطاعات والخلع والهدايا المتفرقة . ولسبب يطول بنا شرحه وقعت بينهما وحشة ففارقه وقدم مصر ومدح كافوراً الاخشيدي (وكان من أعداء سيف الدولة) فاجزل كافور صلته وخلع عليه . وكان أبو الطيب يطمع في تولي عمل من اعمال مصر . فلما لم يحقق كافور أمنيته انقلب عليه وهجاه بعدة قصائد تعد من عيون الشعر من حيث الصياغة والفن ، ولكنها من أدل ما نظمه أبو الطيب على حقيقة خلقه . قيل ان آخر ما مدح به كافوراً الاخشيدي قصيدته البائية التي يقول في مطلعها :

منى كن لي أن البياض خضاب   فيخفى بتبييض القرون شباب

ثم وقعت بينهما وحشة فاقام أبو الطيب سنة لا يلقى فيها كافوراً وهو يعمل في الخفاء على الرحيل عنه . فأعد الابل وخلف الرحل . وجاء يوم عرفة سنة خمسين وثلثمائة قبل خروجه من مصر بيوم واحد . فهجاه بقصيدة لو قيلت في غير كافور لتمنى الموت . وهــذه القصيدة على مابها من قذع لاذع من عيون الشعر التي يحفظها تلاميذ المدارس وقد سار مطلعها مثلا . واليك بعض ابياتها :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لامر فيك تجديد
اني نزلت بكذابين ضيفهم   عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدي وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجود
مايقبض الموت نفسا من نفوسهم   الا وفي يده من نتنها عود
العبــد ليس لحر صالح بأخ   لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه   ان العبيد لا نجاس منا كيد

وليست هذه بأولى القصائد التي هجا بها كافوراً ولا باخراها . اسمعه يخاطبه وقد نظر الى شقوق في رجليه :

وتعجبني رجلاك في النعل انني   رأيتك ذا نعل ولو كنت حافياً
وانك لا تدري ألونك اسود   من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويذكرني تخييط كعبك شقه   ومشيك في ثوب من الزيت عاريا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة   ليضحك ربات الحداد البوا كيا

واسمعه أيضا يقذعه بهذه الابيات اللاذعة وهي قوله :

لا ينجز الميعاد فى يومه ولا يعي ما قال فى أمسه
وانما تحتال فى جذبه كانك الملاح فى قلسه
فلا ترج الخير عند امرىء مرت يد النخاس فى رأسه

وقد اعترف المتنبي بانه ما كان يمدح كافوراً إلا ليحتال عليه بالشعر لأخذ ماله. فلما أقصاه كافور وقطع عنه النوال انقلب المتنبي عليه وأخذ يهجوه. قال يسخر من أهل مصر لخضوعهم لكافور :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من اهل (١) السواد يدرس أنساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه يقال له انت بدر الدجى
وشعر مدحت به الكركد ن بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى

وهجاه بقصائد اخرى كثيرة وهجا أمه أيضاً. من ذلك قوله فى كافور ملمحاً الى مفارقته لسيف الدولة :

وفارقت خير الناس قاصد شرهم وا كرمهم طراً لألأمهم طراً
فعاقبنى المخصى بالغدر جازياً لان رحيلى كان عن حلب غدرا
وقد قيل للخنزير انى مدحته ولو علموا قد كان يهجى بما يطرى

ثم انظر منزلة المال من نفس المتنبي اذ نزل مرة فى أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائى فاستغوى عبيد ابى الطيب فجعلوا يسرقون امتعته. فلما شعر أبو الطيب بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فاصاب وجهه وأمر الغلمان فاجهزوا عليه. ثم قال يهجو وردان ويتهمه بانه كان يستغوى اولئك العبيد بامرأته ويحرضهم على سرقة أمتعته لاجلها :

مررنا الامس فى حسمى بعبد يمج اللؤم منخره وفوه
اشذ بعرسه عنى عبيدى فاتلفهم ومالى اتلفوه

☆ ☆ ☆

نستخلص مما تقدم أن أبا الطيب المتنبي كان يتاجر بشعره وان المال كان له عنده منزلة سامية وأن مطامحه ومطامعه هى التى احفظت عليه الكثيرين ممن هجاهم. والمجال لا يتسع لايراد حكايات جميع الذين هجاهم والقصائد التى قالها فيهم. وفى الحقيقة ان لسانه كان سبب هلاكه. وتفصيل ذلك انه هجا مرة « ضبة » بن يزيد العتبى (ويروى « العينى » بالياء المثناة بعدها نون) وكان ضبة غداراً

(١) وصل همزة « اهل » لاقامة الوزن

بكل من نزل به . واجتاز أبو الطيب فى جماعة من اشراف الكوفة فامتنع منهم ، فهجاه أبو الطيب بقصيدة يقول فيها :

ياقاتلا كل ضيف غناه ضيح وعلبه
كذا خلقت ومن ذا الـ ذى يخالف ربه
ما كنت الا ذبابا نفتك عنا مذبه

قال فى الصبح المنبي يصف هلاك ابى الطيب : قال الخالديان كتبنا الى ابى نصر محمد الجبالى نسأله عما صدر لأبى الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف كان قتله . وأبو نصر هذا من وجوه الناس فى تلك الناحية وله فضل وأدب وحرمة . فاجابنا عن كتابنا جواباً طويلا يقول فى أثنائه : أما ماسألتم عنه من خبر مقتل ابى الطيب المتنبي فانا أسوقه لكم وأشرحه شرحاً بيناً . اعلموا أن مسيره كان من واسط يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ثلثمائة وأربع وخمسين . فقتل بضيعة تقرب من دير العاقول لليلتين بقيتا من شهررمضان . والذىتولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بنى أسد يقال له « فاتك » بن ابى جهل بن فراس بن شداد الاسدى . وكان من قول « فاتك » له لما قتله : « قبحاً لهذه اللحية ياقذاف المحصنات » ذلك ان « فاتكا » هذا هو خال ضبة بن يزيد العينى الذى هجاه أبو الطيب بقوله :

« ما انصف القوم ضبه وامه الطرطبه »

فيقال ان « فاتكا » داخلته الحمية لما سمع ذكر اخته ام ضبة بالقبيح فى هذه القصيدة . فكان ذلك سبب قتل أبى الطيب وأصحابه وذهاب ماله . وأما شرح الخبر فان « فاتكا » هذا صديق لى ، وقدسمى « فاتكا » لسفكه الدماء واقدامه على الاهوال ، فلما سمع القصيدة التى هجا بها ضبة اشتد غضبه ورجع على ضبة باللوم وقال له : « كان يجب ان لا تجعل لشاعر عليك سبيلا » وهو يضمر السوء على أبى الطيب ولا يتظاهر به . ثم بلغه انصراف ابى الطيب من بلاد فارس وتوجهه الى العراق وعلم ان اجتيازه بجبل دير العاقول . فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بنى عمه يرون فى المتنبي مثل رأيه . فكانوا لايزالون يتنسمون أخباره من كل صادر ووارد . وكان كثيراً ما ينزل عندى . فقلت له يوماً وقد جاءنى وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبى : « أراك قد أكثرت السؤال عن هذا الرجل فما تريد منه اذا لقيته ؟ » فقال : « ما أريد الا الجميل وعذله على هجاء ضبة » . فقلت : « هذا لا يليق باخلاقك » فتضاحك ثم قال : « يا ابا نصر . والله لئن اكتحلت عينى به أو جمعتنى واياه بقعة لاسفكن دمه واصرم حياته الا أن يحال بينىوبينه بما لا استطيع دفعه » فقلت له : « كف عافاك الله عن هذا وارجع إلى الله فان الرجل شهير الاسم بعيد الصيت ولا يحسن منك قتله على شعر قاله . وقد هجت الشعراء الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه .. » فقال : « يفعل الله مايشاء » . وانصرف،وما مضى بعد هذا الا أيام قليلة حتى وافانى المتنبى ومعه بغال

موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والادوات الكثيرة لانه كان اذا سافر لا يترك فى منزله درهماً ولا شيئاً يساويه . . . فتلقيته وانزلته فى دارى وسألته عن اخباره وعمن لقى فى تلك السفرة . فعرفنى من ذلك ما سررت به له . وأقبل يصف ابن العميد وفضله وكرمه وعلمه وكرم عضد الدولة ورغبته فى الادب وميله الى الادباء فلما أمسينا قلت له : « يا أبا الطيب . علام انت مجمع ؟ » قال : « على أن اتخذ الليل مركباً فان السير فيه أخف على » قلت : « هذا هو الصواب » ــ رجاء ان يخفيه الليل ولا يصبح الا وهو قطع بلداً بعيداً . وقلت له : « والرأى أن يكون معك من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواقع المخيفة جماعة يمشون بين يديك الى بغداد » . فقطب وجهه وقال : « فما تريد بذلك ؟ » قلت : « أريد ان تستأنس بهم فى الطريق » فقال : « انا والجراز فى عاتقى . فما بى حاجة الى مؤنس غيره » . قلت : « الامر كما تقول . ولكن الرأى فى الذى أشرت به عليك » فقال : « تلويحك ينبىء عن تعريض . وتعريضك ينبىء عن تصريح . فعرفنى جلية الامر » قلت : « ان هذا الجاهل فاتكا الاسدى كان عندى من ثلاثة ايام وهو غير راض عنك لانك هجوت ابن اخته ضبة وقد تكلم بما يوجب الاحتراز والتيقظ . ومعه أيضاً جماعة نحو العشرين من بنى عمه يقولون مثل قوله . » فقال غلامه : « الصواب يامولاى ما اشار به ابو نصر . خذ معك عشرين رجلا يسيرون بين يديك إلى بغداد فان ذلك أحوط » . فاغتاظ ابو الطيب من غلامه غيظا شديداً وشتمه شتما قبيحا وقال : « والله لاأرضى أن يتحدث الناس بانى سرت فى خفارة احد غير سيفى » . قال ابو نصر : « فقلت ياهذا ، انا أوجه قوما من قبلى فى حاجة لى يسيرون بسيرك وهم فى خفارتك » فقال : « والله لا فعلت شيئا من هذا » . ثم قال : « يا أبا نصر . أبنجو الطير تخوفنى ومن عبيد العصا تخاف علي؟ والله لو ان مخصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد معطشون لخمس وقد نظروا الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف ان يرده . معاذ الله ان اشغل فكرى بهم لحظة عين » فقلت له : « قل ان شاء الله » . فقال : « هى كلمة مقولة لا تدفع مقضيا ولا تستجلب آتيا » ثم ركب فكان آخر العهد به . ولما صح عندى خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً

فانت ترى من كل ما تقدم ان ابا الطيب لم يكن عف اللسان بل كان من أبلغ الهجائين ، وقد ركب فى هجائه للناس متن الشطط ولقى بسببه حتفه . قيل انه لما عرض له فاتك احس المتنبي بالضعف فعمد الى الفرار فقال له غلامه : لايتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكر راجعا وظل يقاتل حتى قتل

سليم عبد الاحد

بين المتنبي وبعض الشعراء

« ليس غرضنا من نشر ما يلي اثبات السرقة على أبي الطيب . ولكننا نريد المقارنة بين بعض أبياته وأبيات بعض الشعراء التي تقاربت فيها الخواطر »

قال أبو تمام :

مقيم الظعن عندك والاماني   وان قلقت ركابي في البـــلاد

وقال المتنبي :

وإني عنك بعد غد لغاد   وقلبي عن فنائك غير غاد

وقال البحتري :

وأحب أقطار البلاد الى الفتى   أرض ينال بها كريم المطلب

وقال المتنبي :

وكل امرىء يولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

وقال ابراهيم الكاتب :

أحاول أمراً والقضاء يعوقه   فبيني وبين الدهر فيـــه طراد

ولولا الذي حاولت صعب مرامه   لساعدني فيه عليه شداد

وقال المتنبي :

أهم بشيء والليالي كأنها   تطاردني عن كونه وأطارد

وقال ابن الرومي :

كذا قضى الله للاقلام مذ خلقت   ان السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجـد للسيف ليس المجـد للقلم

اكتب بنا أبداً قبل الكتاب به   فانما نحن للاسياف كالخدم

وقال بشار :

حشاشة ودعتني يوم بينهم   وشيعتهـم وخلتني وأحزاني

وقد أشاروا بتسليم على حذر   من الرقيب بأطراف وأجفان

وقال المتنبي :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا   فلم أدر أي الظاعنـين أشيع

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس   تسيل من الآماق والسم أدمع

شهرة المتنبي

شهرة العظمة والفن الخالد

بقلم الاستاذ محمد محمد توفيق

قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبي فى الشهرة مع أن العباقرة والأفذاذ يملأون صفحات التاريخ بأخبارهم وآثارهم . ولو أن الآداب العربية أتيح لها ما أتيح لآداب الغرب من الذيوع بالترجمة والنقل . لكان المتنبي فى مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم فى الشرق والغرب على حد سواء . ولو أن الغربيين قرأوا شعر المتنبي لأذهلتهم تلك العبقرية الجبارة وهذا الروح الوثاب الغلاب الذى يكتسح ثم يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه أثراً لمنافس

نعم . . . لو قرأ الغربيون شعر المتنبي لوقفوا أمامه ذاهلين . ولست القى القول على عواهنه فقد أذهلت رباعيات الخيام أدباء الغرب وقراء الأدب فيــــه ، وفتحت أمامهم آفاقاً جديدة لم يروها من قبل ، وتألق نجم هذا الشاعر الفارسى فى أوربا وأمريكا كما لم يتألق قط فى المشرق ، مع أن الخيام دون المتنبي مرتبة فهو شاعر يشدو على وتر واحد بينا يشدو شاعرنا على أوتار هى جماع الفن والحكمة والفلسفة

وأول ما نسجله من أمر هذه الشهرة التى لازمت المتنبي فى حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مرتكزة على أسس متينة ودعائم قوية

والشهرة عندنا هى الصمود للدهر ومغالبة معاول الهدم ـ وما اكثرها ! ـ وقد صمدت شهرة المتنبي فى حياته فتحطمت دونها معاول الهدامين الذين فى نفوسهم حقد وسخيمة ، وفى قلوبهم تغلى مراجل الحسد وتلهب نار البغضاء ، والذين ما زالوا يذكرون مثالبه ونقائصه فيعترفون ـ أو يعترف حسدهم ـ بشاعريته التى لا تجارى على وغر مكنون فى الصدور . .

ثم صمدت شهرته للنقاد الزارين عليه بنقدهم بعد مماته مع أن فريقاً منهم حاولوا هدمها بمعاول هيهات أن تهدم هذا التراث الأدبى ، فبقى المتنبي حيا ولم يذهب رسمه ولم يعف أثره

ومما يزيد فى رسوخ هذه الشهرة أنها بلغت غايتها على الرغم من ان شعر المتنبي لم يكن كالنسمات تهب رخاء . أو كرقاق الخمر تروى الشاربين ، بل كان شعراً جليلا يهتف به شاعر عبقرى فيذكى فى القلوب نار الحماسة والنبالة ، ويمتع الانظار والألباب بألوان من الفن الرفيع يتطاول اليها الناس ويتشوفون لها دون أن يبلغوها . ومثل هذا الشعر لا يقدره حق قدره الا الراسخون فى دراسة الآداب الرفيعة التى تسمو بالاذواق إلى ماهو أعلى من اذواق العامة والمترفين من

عشاق الأدب المخنث . فبهذا الشعر خلد المتنبي ، وعلى هذا الأساس المتين بنى شهرته ونقش اسمه على الصخر ، بينا خط معظم معاصريه من الشعراء أسماءهم على الرمال

وإنك لتعجب وأنت تقرأ ديوانه كيف انه استطاع ان يجمع كل هذه الأقوال المأثورة والأبيات الحكيمة فى صعيد واحد ، لعلمك أن معظم السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتمخضون بالبيت المأثور بعد الهذيان الطويل

ثم انك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذى رجح الشعراء وسادهم دون ان يعدو طوره ، وتعجب لادعائه النبوة وقرنه اسمه باسماء الانبياء والمرسلين . ولنزوله بالدين والكتب السماوية الى ميادين المدح والجدال والمفاخرة ، ولمخالفته ما درج عليه الناس من مألوف القول والعمل ، ولتلك الحوادث الجسام واندماجه فيها مادحاً وهاجياً وحكيما بعد أن حلب الدهر أشطره ، ولاعتداده بنفسه وشموخ انفه وخيلائه . ولتجاربه وثقافته التى يندر لها مثيل

نعم انك تعجب لكل هذا إذ تفاجأ به أول وهلة وأنت تقرأ ديوانه واخباره ، فتعود الى نفسك وتقول : لا جرم إذا خلد المتنبي وطبقت شهرته الآفاق . .

ثم ان المتنبي تفرد بنزعة أخرى غير نزعة الشاعر الفنان ، إذ كان يحسب انه ارفع من الشعر والشعراء منزلة ، وأن الشعر مطيته الى الملك والسؤدد ، ويرى أن بنفسه أنفاً أن تسكن اللحم والعظم . . والحق يقال انه كان عظيماً فى شعوره وحركاته وسكناته ، فقد كان شعره على ذباب سيفه وسية قوسه ، وكانت له أبيات تهول ، وقد أضفت عظمة نفسه على شعره هذا الجلال وتلك الروعة (التى تركت فى الدنيا دوياً) كان يود أن يكون (للسيف والفتكة البكر) لا للشعر والمدائح . فلا عجب ان تشتهر قصائده وهى من وحى الملك والبطولة والفن الرفيع

أما منافسوه من الشعراء فقد كانت قصارى آمالهم صلات الأمراء وعطاياهم ، وكان الخوف من ضياع هذه العطايا سياجاً يحول بينهم وبين إشهار ما زكنوه وما شعروا به . . . لقد كانوا أذناباً ولم يكونوا سادة . وكانوا ملهاة وأداة من ادوات التسلية كالاقزام فى بلاط الفراعنة سواء بسواء ـ اللهم إلا عند الفخر ـ وهنا ايضاً كانوا ينطقون بلسان سادتهم وامرائهم ، فلم يجرؤ أحدهم على مجاراة المتنبي فى قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ولم يدع احدهم أنه (خلق) أميراً من الامراء بل كان الامراء هم الذين يخلقونهم ، بينا يحق للمتنبي أن يفخر بأنه (خلق) سيف الدولة وغير سيف الدولة بمدائحه وروائع آياته . . . بل نذهب الى اكثر من ذلك فنقول إنه (خلق) كافورا بهجائه المقذع وسخريته اللاذعة . . . فلولاه لما تمثل كافور فى أذهاننا عبداً خصيا بطينا مشفره نصفه وتكاد تحسبه منتعلا وهو حافى القدمين

وقد كان شعور المتنبي بتفوق شعره على شعر اخصامه عظيماً ، حتى ان هذا الشعور انقلب

إلى إعجاب بالنفس وخيلاء لا حد لتطاولها مما حداه أن يقول :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول ؟

فانظر الى كلمة (شويعر) هذه وتأمل فيما تحويه من معاني الزراية والسخرية الأليمة !

ثم ان جلال شعره وفخامة جرسه جعله يسير في البلاد ويؤثر في الناس اضعاف ما يؤثر شعر منافسيه وحساده . وهذا مما جعل الامراء يستقدمونه ويجزلون له العطاء ، وقد بلغ قلق بعضهم على لقائه وحرصهم على مجيئه حد الضحك ، ككافور الذى كان يهذى بالمتنبي ويقرب قدومه ولا يزال يتراوح بين اليأس والرجاء حتى يقبل فتهدأ اعصابه ويطمئن قلبه

وقد ساعده على بلوغ تلك المكانة عند الامراء والولاة عدم استقراره في حاشية امير واحد امدا طويلا ، وعدم قصره مدائحه على رجل واحد ، فكان يشد الرحال إذاسئم المقام فيقصر امير او وزير ، و يذهب الى غيره ليمدحه ولينعم عنده شهراً او عاما او بضعة اعوام تاركا وراءه الاعجاب بشعره والحقد عليه ، مستقبلا وجوهاً جديدة متقبلا عطايا جزيلة لا يدفع لها ثمنا من كرامته وعزة نفسه ، ومن هنا تهافت عليه طلاب المدح فغلا ثمنه في سوق الشعر بينا كسدت بضاعة جل منافسيه فعمدوا الى غيظه

ومما زاد في غيظ منافسيه وحساده أن شعره خلا - او كاد يخلو - من الغزل والتخنث مخالفاً بذلك جمهرة الشعراء القدماء منهم والمحدثين ، وانه لم يكن متهالكاً على النساء شأن غيره من محبي الترف وأساري الشهوة الجامحة ، ولم يكن للخود منه إلا ساعة ثم بينه وبينهن « فلاة الى غير اللقاء تجاب » ، ثم انه لم يكن سكيراً ولا عربيداً فخلا شعره من اوصاف الخمور إلا فيما ندر ، وظل جافاً مطهراً الى آخر بيت في ديوانه . كل ذلك كان ترفعاً عما درج عليه الناس من مألوف التغزل والمنادمة ، وسموا بالشعر والفن الى فن الرجولة والبطولة

والمتنبي هو الشاعر العربي الوحيد - فيما نعلم - الذى كان لا يتهيب الامراء بل يدخل عليهم ويخاطبهم مخاطبة الند للند والصديق للصديق ، وقد روى انه كان ينشد الشعر وهو جالس امام سيف الدولة ، وان طاهراً العلوى اجلسه على سريره وجلس بين يديه . وهذا نصر عظيم للشاعر وللشعر نفسه ، فقد بيض المتنبي وجهه بعد ان سوده الشعراء المادحون المستضعفون . وان شعرا يقوله شاعر معتداً بنفسه مترفعاً عما درج عليه الشعراء من الصغار والزراية لقمين بأن يذيع فيلهج به كل لسان

ولست اريد هنا أن أخوض في عباب شعر المتنبي الزاخر فقد قتله غيري بحثاً ، ولكني أريد ان اضيف فخامته وروعته الى تلك الصورة التي رسمتها لحياة شاعرنا الفذ وشمسها دالفة الى الغروب لتستقبل شمس عظمته الخالدة وشهرته التي طبقت الآفاق وهو مكين في ذراها

محمد محمد توفيق

هل كان المتنبي متديناً ؟

ضعف العاطفة الدينية عند أبي الطيب

بقلم الاستاذ علي أدهم

أبو الطيب المتنبي أقوى شعراء العربية نبضات قلب ، وأبعدهم منزع فكر ، وأعمقهم حكمة ومن أصدقهم افصاحاً عن خفايا النفس ، وأعرفهم بأسرارها . فلا عجب ان كان بعد ذلك أبعدهم شهرة وأخلدهم أثراً . ولست أعرف شاعراً من شعراء العرب حظى من اعجاب الخاصة والعامة بمثل ماحظى به المتنبي . وبرغم الزمن الطويل الذى مر على وفاته ، وتغير الاحوال وتبدل المعايير الادبية ، وتباين أساليب الفهم واختلاف الذوق فان شهرته لم تخمد ولايزال اسمه سائراً على الألسنة وشعره مضرب الامثال ومستودعاً من مستودعات الحكمة

والمتنبي انموذج صالح لتمثيل خصائص الشعر العربي . ولا نزاع فى أن شاعراً واحداً بالغاً مابلغ من القدرة والافتنان لا يكفى لتمثيل عبقرية شعب فى ظلالها المختلفة وشياتها المتلونة . وقد لا يكفى انقطاع شاعر ممتاز لتمثيل جانب اللهو والمجون أو جانب الزهد والورع أو جانب القوة والامل أو جانب اليأس والالم . وارجح ان المتنبي أقرب شعراء العربية الى التمثيل العام لعبقرية الشعر العربى . ولذلك انعقد عليه الاجماع وعمرت بذكره المجالس وحفلت بأخباره السير وبقى شعره على الزمن

والمتنبي لا يستثير اعجابنا ولايهفو بألبابنا من ناحية اثارة الخيال واستفزاز العاطفة وحدها وانما لانه يقدم لنا مادة ثمينة للتفكير والتأمل ويعرض علينا نظرات فى الحياة صائبة وخواطرعن الانسان جديرة بالنظروالاعتبار . وواضح اناسلوب المتنبي الذى يغلب عليه تحرى الضخامة والقوة لايصلح للتعبير عن المشاعر الرقيقة وهمسات الروح الداخلية وضروب الجمال الخفى وألوانه الصامتة ونغماته الخافتة . ولكنه يطيل التفكير فى الحياة ويستخلص الحكمة من التجارب ويعطيك فى شعره عصارة صالحة ليس فيها حلاوة ولانداوة وليس لها موسيقية صافية النغم عذبة الرنين ،فكل كلمة عليها طابع القوة وسمة العنف . وهو لايدانى البحترى فى جمال فنه ولطافة تصوره ولا يبز أبا تمام فى استاذية الصياغة وفحولة الصنعة ولايتدفق تدفق المعرى ، ولايثب وثبات الشريف. ولكن عقله المكين كالثغر الكبير المتسع تحمل اليـه السفائن حمولات الافكار من شتى النواحى وهو يستطيع ان يهضمها ويطبعها بطابعه

وعند ماقال الناقد الانجليزى المشهور «ماثيوارنولد» : « ان الشعرهو نقد الحياة وأحسن الشعر هو الذى يقدم لنا أكمل تفسير للحياة الانسانية » أثار عليه ذلك زوبعة من النقد . ولكنى أرى ان

الشعر لكي يكون من الطراز الاسمى ، لا يكفى ان يرفه عن النفس أو ان يكون حافلا بالموسيقية مترعاً بالاخيلة ، بل يلزم أن يعيننا على تفسير بعض مشكلاتنا الانسانية ومسائلنا الاخلاقية . ولست أقصد بالاخلاق هنا المعنى الضيق المحدود ، وانما أقصد بها قوة الشعر على ان يرتفع بنا فوق سفاسف الحياة وصغائرها ، ويمتاز فى هذه الصفة المتنبي وأبو العلاء فهما ملكان يسيطر كل منهما على عالم شاسع من عوالم الروح ، وكلاهما منفرد حزين فى النهاية ولكن الاول محارب مطبوع على المناجزة

تعود ان يغبر فى السرايا ويدخل من قتام فى قتام

أما الثانى فيائس مستسلم . والمتنبي أقرب الى مزاج الرجل السليم . ونظرته فى الحياة أساسها الخبرة ، فهى بريئة من ثرثرة العلماء المكبين على كتبهم ، ومنزهة عن أوهام رجال الفكر البعيدين عن ميادين العمل . وحياته اشبه برواية لها مواقفها المشهورة . وقد تكفل ديوانه بوصف أحوالها المتقلبة ، وأطوارها المتتابعة ، من نشأته الغامضة ، وما منى به من الفشل الحاطم فى مستهل أمره ، ثم اتصاله بسيف الدولة وانصرافه عنه الى مصر ، وقفوله منها مغاضبا لكافور ، إلى مصرعه الاخير

ولكن هناك جانباً هاما من جوانب الحياة العربية أهمل المتنبي التعبير عنه والالمام به . ولم يكن له فيه موهبة تذكر وهو الجانب الدينى فى الحياة العربية . ولو فنى الشعر العربى اجمعه ولم يبق سوى ديوان المتنبي لما استطعنا أن نعلم منه شيئاً يؤبه له عن العاطفة الدينية عنـد العرب . ولا نكران فى ان اكثر شعراء العرب لم يعنوا باثبات خواطرهم الدينية إلا فى الندرة والفرط ، ووقفوا من الدين موقفاً محايدا . ولكن الذى يسترعى النظر فى شعر المتنبى ، ان فيه اشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاء تنم على وهن العقيدة وضعف الايمان وغلبة الآداب الجاهلية فى نفسه على الآداب الاسلامية . وقد لمح ذلك القدماء من النقاد فأشار اليه الجرجانى فى الوساطة والثعالبي فى اليتيمة وتناوله من الكتاب المحدثين الاستاذ العقاد والاستاذ شفيق جبرى والاستاذ محمد كمال حلمى . ومن عجيب الاتفاق أن هذه الصفة يشترك فيها المتنبي مع شكسبير . . وقد كانت العاطفة الدينية عند المتنبي ضعيفة فى جميع أدوار حياته . ففى ريق شبابه وا كتمال قوته قال :

أى محـل أرتقى اى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق اللـــه وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق

وفى هذه الابيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها وهى تروى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً باجلاله خليقاً بآماله وطمحات نفسه

وفى مدحه لبدر بن عمار يقول :

تتقاصر الافهام عن ادراكه مثل الذى الافلاك فيه والدنى

وهو هنا يرتفع بممدوحه الى مرتبة الالوهية ولو كان لها مكانة من نفسه لما هبط بها هذا الهبوط

ويقول فيه أيضاً :

لو كان علمك بالاله مقسما   في الناس ما بعث الاله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـــفرقان   والتوراة والانجيلا

وفيه فضلا عن المبالغة اقحام للكتب المقدسة في مجال كان يجمل به أن ينزهها عنه

ويقول في الغزل :

يترشفن من فمي رشفات   هن فيه حلاوة التوحيد

ولا يتورع عن تشبيه نفسه بالانبياء في قوله :

ما مقامي بأرض نخلة الا   كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها اللـــــه غريب كصالح في ثمود

ويتناول معجزات الانبياء بالتهوين والانتقاص فيقول :

لو كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

وفي مدحه لاحد العلويين لا يستكثر أن يقول :

وأبهر آيات التهامي أنه   أبوك واجدى مالكم من مناسب

ويخاطر في مدحه لسيف الدولة بمثل هذا القسم :

ان كان مثلك كان أو هو كائن   فبرئت حينئذ من الاسلام

وفي مدحه لابن العميد — وكان في نظر المتنبي « فلسفيا رأيه فارسية أعياده » — يقول :

لنا مذهب العباد في ترك غيره   واتيانه نبغي الرغائب بالزهد
رجونا الذي يرجون في كل جنة   بارجان حتى ما يئسنا من الخلد

فأصحاب العقيدة في رأيه هم العباد وهو يختلف عنهم بطبيعة الحال ولايشبههم الا في قصده لابن العميد كما يقصدون هم الجنة ، وهي مشابهة لا تقر بها عين الدين . وقد سخر من آدم سخرية رقيقة مستساغة على خلاف عادته في التهكم المر والسخرية القارصة وأجراها على لسان حصانه :

يقول بشعب بوان حصاني   أعن هذا يسار الى الطعان
ابوكم آدم سن المعاصي   وعلمكم مفارقة الجنان

وفي القصيدة التي نظمها بعد شفائه من الحمى بمصر يقول :

تمتع من رقاد أو سهاد   ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى   سوى معنى انتباهك والمنام

ويقف من مسألة خلود الروح موقف الشك . وهي ركن من أقوى أركان العقيدة الدينية :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم   الا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة　　وقيل تشرك جسم المرء فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته　　أقامه الفكر بين العجز والتعب

ولم يكن له من وثاقة الايمان ومتانة العقيدة ما يمكنه من الاطمئنان الى رأى ، والقطع بأحد المذهبين . على أنه قد صرح بالرأى المادى تصريحاً لا يحتمل تأويلا ولا تمحلا فى قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا　　على زمان هن من كسبه
فهذه الارواح من جوه　　وهــذه الأجساد من تربه

ومن شك فى الخلود فليس عجيبا ان تطالعه صور الفناء من كل ناحية . وفكرة الفناء ماثلة على الدوام له فهو يكثر من ترديدها كقوله :

أبنى أبينا نحن أهل منازل　　أبدا غراب البين فيها ينعق

ولهذه الفكرة نتيجتان مختلفتان : فهى قد تغرى الانسان بالزهادة واطراح اللذة،وقد تسوقه على العكس الى الانغماس فى الملذات حتى يستوفى نصيبه من المتعة ، لأنه ما دامت الحياة فانية فلماذا لا نأخذ قسطنا من اللذة ؟ وعلى أى أساس نقيم قواعد الاخلاق ؟ وفى ظل هذه الفكرة قال المتنبي :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها　　فمفترق جاران دارهما العمر

وقال :

أنعم ولذ فللامور أواخر　　أبداً اذا كانت لهن أوائل

وفى سبيل تحقيق أطماعه وبلوغ مآربه لا يرى بأساً فى أن يستعين بقوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة　　ويستبيح دم الحجاج فى الحرم

وفى هجائه لكافور يقول :

إلا فتى يورد الهنــدى هامته　　كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذى القـلوب بها　　من دينه الدهر والتعطيل والقدم

ومعروف عن المتنبي أنه لم يكن يصلى ولا يصوم ولا يقرأ القرآن . ومن كان لا يرى فى الوجود شيئاً مقدساً فليس عجيباً أن يسيء الظن بالدهر والناس ويغالى فى ذم الدنيا فهى فى نظره أخون من مومس واخدع من كفة الحابل . أما اهل عصره فهم فى رأيه كما وصفهم :

اذم الى هذا الزمان أهيله　　فأعلمهم فدم واحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم　　واسهدهم فهد وأشجعهم قرد

وهو لا يؤمن بالصداقة فليس للانسان صديق سوى نفسه

صديقك انت لا من قلت خلى　　وان كثر التجمل والكلام

وقد وردت فى مدائحه لسيف الدولة بعض اشارات الى الدين تقليدية اقتضاها سياق الكلام ولكنها ليست من فيض القلب ولا من نتاج العقيدة مثل قوله :

ولست مليكا هازماً لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

ولقد كان عصر المتنبي عصر شك واضطراب استحر فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب وضعفت فيه العقيدة وساور الشك النفوس وطغى على العقائد . ولكني أرى ان ضعف عقيدة المتنبي يرجع في الاكثر الى مزاجه وشخصيته . فقد كان بطبيعته رجلا واقعياً مسرفا في واقعيته لا يعرف مداعبة الاحلام ولا التعلل بالآمال ولا تحلق أوهامه في السحاب ولا تترامى أفكاره إلى عالم مجهول وراء الزمان والمكان ولا يجرى فكره وراء الالفاظ البراقة والصور الخلابة بل يحب ان يستمسك بالارض يوسعها سيراً وتوثباً وحفراً وتنقيباً . وليس له وراءها مطمع . وكان ينفذ الى الافكار الجليلة من خلال هذه الواقعية المحضة . وتلك سمة من سمات كبار الشعراء والفنانين فالفنان الصادق يصل الى المثالى عن طريق دنيا الحواس لا عن طريق الصور المجردة . وعبقريته المصورة تجلو لنا الحقائق أنصع لونا وأشد في النفوس وقعاً وهذا هو السر في ان حكمة المتنبي المستقصرة من الحياة وتجاربها كالذهب النقي لا تذهب لمعته ولا يغيض رونقه

وشخصية المتنبي بعيدة عن روح الدين . لان الدين في أوسع معانيه هو الاعتقاد بقوة علوية فوقنا ولكنها تعمل من أجلنا . والرجل المتدين يلوذ بهذا الاعتقاد ويتقي به قوارع الخطوب وعواصف الحياة . وهو في نظره حقيقة الحقائق وسر الاسرار ومنبع الامل ومبعث الاخلاق . ويرى في كل مظهر من مظاهر الكون آثاراً له ظاهرة وشواهد عليه ناطقة . وقد كان ابو الطيب رجلا كثير الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها لا يعرف التواضع . وكان يحس ان فيه من قوة الاسر وصلابة المعجم ما يغنيه عن الاستناد الى أية قوة أخرى خارجية . انظر مثلا الى قوله :

ان نيوب الزمان تعرفني انا الذى طال عجمها عودى
وفي ما قارع الخطوب وما آنسني بالمصائب السود

والحياة في نظر المتنبي ليست معبداً مقدساً ولا صومعة ناسك وانما هى مجال كفاح لا رحمة فيه ولا هدنة . وهو حكيم مجرب ولكنه ليس قديساً . ولقد واجه شرور الحياة ومنا كر العيش بلا أمل ولا يقين . وعرف ضعف الانسان وجهالته وشقاءه ولكنه لم يستطع ان يعتصر هذه الظواهر المؤلمة ليخرج لنا ما فيها من الخير ولم يذهب بنا الى ما وراءها من نظام ولم تستطع عبقريته ان تنير دواجى الظلام المخيم حول هذه المشكلات . ورغم توقد عاطفته وقوة نفسه لم يستطع ان يبعث فينا شيئاً من الثقة بالنفس الانسانية والامل في مصيرها . ففلسفته حزينة مكتئبة وحياته قلقة مضطربة وخاتمته مأساة تستثير الاسف وشخصيته تثير الاعجاب والاحترام أكثر مما تثير الحب والعطف . وخلوه من العاطفة الدينية لا يقدح في شاعريته لانه لا يشترط ان يكون الفن مظهراً للدين وانما الفن والدين والاخلاق هى وسائل الوصول إلى عالم القيم الخالدة .وقد آثر المتنبي ان يسلك طريق الفن ولئن كان نصيبه من الدين قليلا فقد عظم نصيبه من الفن

على أدهم

نفسية المتنبى

تحليل لبعض نواحى حياته



بقلم الاستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية

سيتحدث الشعراء والادباء عن المتنبي وسيصورونه بما يليق بمكانته العاليــة فى عالم الشعر والأدب وستستهويهم تلك الصورة الخلابة التى يعطيها عن نفسه فى متفرق شعره . لأن الرجل تحدث عن نفسه بما لم يتحدث به شاعر آخر . ودفع نفسه بنفسه الى ذروة الشعر والمجد ومكارم الاخلاق . أليس هو باعترافه أشعر الشعراء :

انا الذى نظر الاعمى الى ادبى   واسمعت كلمــاتى من به صمم

* * *

انا ترب الندى ورب القوافى   وسهام العدى وغيظ الحسود

وهو صاحب الهمة القعساء التى تستخف بكل شىء فى الوجود :

تحقر عنــدى همتى كل مطلب   ويقصر فى عينى المدى المتطاول

* * *

وإنى اذا باشرت أمراً أريده   تدانت أقاصيه وهان أشده

وهو الكريم واسع الصدر الحافظ للسر :

كفانى الذم أننى رجل   أكرم مال ملكته الكرم

وهو الشجاع الذى بلغ من شجاعته أن يعدها الناس تهورا :

ولو برز الزمان إلى شــخصاً   لخضب شعر مفرقه حســامى

هذا الرجل الذى يشرف قومه به ويفخر أجداده بانتسابهم إليه :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لا بجــدودى

أترى له فى الدنيا مثيلا :

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى   إن النفيس غريب حيثما كانا

وبالجملة هذه عقيدة فى نفسه منذ أن ادعى النبوة فى صباه

بل دعنا من حديث الرجل عن نفسه ولنعرج على الأخلاق الفاضــلة التى يقدرها والمثل العالية التى يمجدها . فتراه يمجد القتال من صغره :

لا تحسبن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين وقت القتال
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

ويمدح التواضع والزهد فى الدنيا وطلب العلى ، ويذم البخل وحرص الناس على الدنيا بأبيات كثيرة ـ أعددناها ولكن يضيق المقام عن ذكرها ـ ترفعه الى مقام القديسين والمتصوفة الزاهدين . ولكنك أثناء هذا كله تبرز لك من عقله الباطن صورة البخيل الجشع الذى يضع المال فوق كل شيء حتى فى التشبيه :

من يطلب المجد فليكن كعلى يهب الألف وهو يبتسم

* * *

تهلل قبل تسليمى عليه والقى ماله قبل الوساد

* * *

انى أنا الذهب المعروف مخبره يزيد فى السبك للدينار دينارا

ثم انظر الى هذا الرجل الوقور يتملكه الغضب فى الهجو فيفلت لسانه بالقول الذى تصطك منه المسامع فى قصيدة « ما انصف الناس ضبة »

هذا هو الستار الملون البراق الذى يريد أن يستر به المتنبى خلقه ونفسيته ، ولكن عين علم النفس تنفذ الى أعماقه وتكشف عن طبيعته وتصدر فيه حكماً قد يغضب رجال الأدب وقدلا يليق بنا أن نسوقه فى ظرف كهذا يعظم فيه المتنبى وتمجد ذكراه . ولكننا نتحدث عن الرجل لا عن الشاعر ولا يعيب الشعر أن يكون ناظمه حقيراً ولا الأدب أن يكون قائله بذيئاً ولا الجمال أن يكون مصوره قبيحاً . فكم مجد الصدق على لسان الشاعر الكذوب وكم مدح الكرم بقلم الأديب البخيل . وتعزيزاً لحكمنا فى قضية المتنبى نرجو القارىء أن يجول معنا جولة قصيرة فى حياته . وسنكتفى بالجزء البارز فى تاريخ حياته وهو اتصاله بالأمراء والكبراء ومدحه أو ذمه لهم . ولا ينكرن أحد أن شعر المتنبى كان كله شعراً خاصاً ينصب على مدح الناس عند التقرب اليهم ثم ذمهم عند الانصراف عنهم وان الحكم والامثال على سموها وجلالها كانت تنساق انسياقاً اثناء هذا الكلام الخاص

فقد ركب الغرور الرجل منذ نشأته وظهر جلياً فى تهوره وادعائه النبوة ولم يكن هذا الفعل طريقاً ميسوراً للمجد . فاراد تحقيق آماله الهوجاء ومطامعه الخيالية عن الطريق الناعم السلس المأمون العاقبة . طريق الاتصال بالامراء ومدحهم بل والاسراف فى مديحهم لينال من مالهم وعطفهم بل ربما استوزروه وولوه ، فأخذ يتجشم المشاق فى أسفار بعيدة أبعد من آماله (كما يقول صاحب اليتيمة) يمدح فيها القريب والغريب ويستعرض الامراء والحكام ويتخير منهم اكثرهم دسماً واوفرهم مالا فيرفعه الى السماكين . بل انه لا يتورع فقد يكون الامير صغير

الشأن فيخاطبه بصفات الالوهية (كالمعز المذل)

فيقول فى على بن ابراهيم التنوخى : « مذل الاعزاء المعز »

وفى كافور : « جرى الخلف الا فيك انك واحد »

ثم ينهل من الرجل حتى يرتوى فاذا أنس منه شيئاً من الانصراف عنه الى غيره وهو يأبى إلا ان يكون المدلل به، انصرف عنه الى غيره واخذ يمدحه بمثل ماكان يمدح به الأول، بل إنه ليذم الامراء السابقين فى غير حاجة ويعرض بهم من غير ضرورة. وقد يدعوه بعض الامراء الصغار وهو فى طريقه الى ملك من الملوك، دعوة مخلصة صادقة فيترفع عنهم ولا يتنازل بالرد عليهم كما فعل مع الوزير المهلبى والصاحب أبى القاسم وهو فى طريقه الى عضد الدولة - وقد قيل ان الثانى كتب اليه يلاطفه ويضمن له مشاطرته جميع ماله، ولكنه لم يكن قد استوزر بعد فلم يقم له وزناً ولم يجبه على كتابه. وهكذا عاش الرجل أفاقاً مداحاً متكسباً بالشعر على أسوأ مايكون التكسب مناقضاً بفعله كل ماسطره بقلمه أو انشده بلسانه. ولم يكن لخلقه نصيب كبير فى الفضائل التى كان يمجدها ويتغنى بها فى نفسه وفى غيره. ولنكتف بأبرز حوادثه التى تبين لنا مبلغ هذا التقلب فى طبيعته حتى لا يطول بنا البحث

فقد مدح سيف الدولة بعشرات من قصائده لا يترك فيها صفة طيبة ولا خلة حميدة الا نسبها اليه حتى ليخيل اليك أن الرجل سيجعل حياته وقفاً على مديحه، ولكنه سرعان ما يتصل بكافور فى مصر ثم يتركه الى عضد الدولة وغيره وغيره. وتؤخذ عليه فى حياته المتقلبة هذه مآخذ قوية اهمها :

(١) إيهام كل امير بانه انجذب اليه عن رغبة صادقة وانه سيقصر مدحه عليه فيقول لحسين بن عبيد الله :

لا يجذبن ركابى نحوه احد   ما دمت حيا وما قلقلن كيرانا

ولكافور : قواصد كافور توارك غيره   ومن قصد البحر استقل السواقيا

(٢) قصره الفضل كله على من يمدحه دون سائر الناس كأن الفضائل كلها قد جمعت فيه. فهو يقول فى كافور :

وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

بل انه ليقلب نقصه كمالا فيقول فى سواد لونه ما يجعله من الملوك بمنزلة سواد العين وهم بياضها :

فجاءت بنا انسان عين زمانه   وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

(٣) ذم الأمير بما كان يمدحه به سابقا فقد اتخذ سواد كافور مادة لهجوه وعيره بالبخل بعد أن كان الكرم وقفاً عليه وعير أهل مصر به بعد أن كان عبداً له فيقول فى سواده :

وانك لا تدرى ألونك أسود من الجهل أم قدصار أبيض صافيا

بل انه ليجعل وجود كافور فى الدنيا سلطانا للمسلمين دليلا على التشكك فى وجود الخالق :

الا فتى يورد الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم

كل هذا لأن كافوراً منحه كل شىء وقربه اليه ولكنه طمع فى الولاية فلم يعطها اياه . وقد نقبل هجاءه كافوراً فى خلقه بحجة انه تبين سوء رأيه فيه وندم ، ولكنا لا نقبل تعييره بسواده وسوء خلقته وهو يعلم ذلك قبل أن يقدم عليه . ولكن ماذا نقول فى الرجل وهو لا يقيم إلا حيث يجد المرعى والمنفعة المادية

(٤) ثم انظر اليه وهو يذم سيف الدولة فى حضرة كافور أو على الاقل وقت مدحه له

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وإن بليت بود مثل ودكم فاننى بفراق مثله قمن
عند الهمام ابى المسك الذى غرقت فى جوده مضر الحمراء واليمن

أى عند كافور الذى جرده من الفضل فيما بعد . وما كان أحراه ألا يتنكب هذا الطريق ويذم أمير الجود فى مدح شر العبيد !

(٥) وما أشد تحايله عند ما يحاول ان يبرر للامير اللاحق شرحه مديحه للأمير السابق حتى لا تأخذه الغيرة فيقول عن كافور انه لم يكن جاداً فى مديحه :

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

ثم يقول لعلى بن ابراهيم التنوخى :

أشرت ابا الحسين بمدح قوم نزلت بهم فسرت بغير زاد
وظنونى مدحتهم قديماً وأنت بما مدحتهم مرادى

وهذا فى الحق تخلص غريب لانه يقول المدح لانسان ويعنى به آخر . ثم هو فى حضرة أبى شجاع فاتك يتوب عن مدح كافور ويقرع نفسه عليه :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى

كأنه كان فى الواقع لا يمدح كافوراً ليسره وانما ليغيظ الناس الذين ملكوا عليهم عبداً وهذا تحايل غريب !

هذه إلمامة بسيطة بناحية من نواحى خلق المتنبى . ولعلنا لا نكون قد أسرفنا فى النقد . وعلى كل فنفسيته شىء وشعره وأدبه شىء آخر

محمد مظهر سعيد

الغموض في شعر المتنبي

هل كان المتنبي يتعمده

أعجز المتنبي كثيراً من البلغاء ببلاغته، وتفوق على جميع شعراء عصره، وفرض على الايام خلود شعره، ولكن بالرغم من هذا الاعجاز الذي اشتهر به جاءت بعض أبياته غامضة مبهمة. فهل كان الشاعر يتعمد الغموض والابهام؟ وما السر في هذا الشذوذ الذي يتخلل ابياته الخالدة؟ ذلك مايدور حوله البحث بين الاستاذين عبد الرحمن البرقوقي، ونقولا الحداد. وقدذهب كل منهما مذهباً في هذا الموضوع

رأى الاستاذ البرقوقى

«.. اذا عرفت هذا وتفطنت اليه تبين لك ان ليس هناك ما يصح أن يسمى تعمداً للغموض. وانما هو الاحتفال والاحتشاد واستنباط المزيعة لحوافز نفسية وانفعالات طارئة وظروف عارضة..»

ليس يخلو شاعر من الشعراء ولا كاتب من الكتاب، ولاسيما النوابغ الفحول، من غموض. بيدأن المتنبي كما انه فاق شعراء عصره في الجزالة والافصاح والتبيين، فاقهم في الغموض والاغراب والتعقيد، فغموض المتنبي يبذ غموض سائر الشعراء كما وكيفاً كما يقولون، أى أن الغموض فى شعره كثير، وعلى كثرته تراه أمعن فى الغموض من غيره. فهو نابغة فى الغموض كما انه نابغة فى الابانة والافصاح

وللغموض ألوان ومظاهر شتى، فغموض فى الالفاظ وغموض فى المعانى. وغموض الالفاظ إما لان مفرداتها غريبة وحشية ممنة فى الغموض بحيث لايكاد يعرفها العلماء المبرزون مثل قول المتنبي:

وما أرضى لمقلته بحلم ... اذا انتبهت توهمه ابتشاكا

والابتشاك الكذب... وقوله أيضا:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ... شيم على الحسب الاغر دلائل

فان لفظة جفخ غريبة وحشية فضلا عن انها غليظة مرة الطعم، وكان للمتنبي متندح عنها بأن يستعمل عوضها كلمة فخرت التى هى بمعناها، ولكن ما الحيلة فى تنطس الشعراء...

ومن هذا الباب ولوع المتنبي باللغات الشاذة أو الضعيفة أو المختلف فيها مثل استعماله لفظة السم بدل الاسم فى قوله:

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس　　تسيل من الآماق والسم أدمع

والبيت رائع بديع .. وكذلك ولوعه بالتلاعب بالألفاظ ، وتلمس المناسبات بينها ليظفر بما يسمونه التجنيس أو مراعاة النظير أو ما اليهما من أنواع البديع ... وهو كثير فى شعر المتنبى ..

وقد يكون غموض الالفاظ لما يسمونه المعاظلة أو التعقيد اللفظى كقول المتنبي :

ولذا اسم اغطية العيون جفونها　　من أنها عمل السيوف عوامل

وقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه　　بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

أما الغموض فى المعانى فان ألوانه هو الآخر كثيرة ، وقد يكون من استعمال لفظ مشترك ، ومن وقوع كناية بعيدة أو استعارة خفية أو ايجاز مخل إلى أمثال ذلك مما استقصاه علماء البيان . وقد أرجع بعض النقدة من المتقدمين أسباب الغموض فى المنظوم والمنثور إلى ثلاثة أشياء . التغير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبههما ، وسلوك الطريق الأبعد ، وايقاع المشترك

وهناك ألوان من الغموض تعد من محاسن الشعر وتدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه ، ولكنها غموض على أية حال . وذلك مثل مما يسمونه الموجه وهو أن يحتمل الكلام معنيين غيرين ضدين وغير ضدين ، فالضدان كقول أبي الطيب يمدح كافورا :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا　　لمن بات فى نعمائه يتقلب

فان هذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان ، احدهما ان المنعم عليه يحسد المنعم ، والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه . وكذلك قوله من قصيدة يمدحه :

فان نلت ما أملت منك فربما　　شربت بماء يعجز الطير ورده

فان هذا البيت يحتمل مدحا وذما . واذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ماقبله ، فانه يكون بالذم أولى منه بالمدح ، لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت مفتتح بان الشرطية ، وقد أجيب بلفظ رب التى معناها التقليل ، أى لست من نوالك على يقين فان نلته فربما وصلت الى مورد لا يصل اليه الطير لبعده . واذا نظر الى ماقبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذى قبله . وكثيرا ما كان يعمد المتنبي الى هذ النوع فى شعره ، وأكثر ما كان ذلك فى قصائده الكافوريات .. وحكى ابن جنى قال :

قرأت على أبى الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التى أولها :

« أغالب فيك الشوق والشوق أغلب »

فأتيت منها على هذا البيت :

وما طربى لما رأيتك بدعة　　لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت يا أبا الطيب : لم تزد على ان جعلته أبا زنة — أى قردا — فضحك لقولى . . أما غير الضدين فكقول المتنبي من قصيدته فى عضد الدولة :

لو فطنت خيله لنائله لم يرضها أن تراه يرضاها

فانه يستنبط منه معنيان غير ان : احدهما ان خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه لأن عطاياه أنفس منها . والثانى أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكره خروجها عن ملكه . . وهذا النوع المسمى الموجه تراه كثيرا فى شعر الفحول المتقدمين منهم والمتأخرين . فن ذلك باب الكناية وهو باب واسع فى العربية حتى أفرد له المتقدمون الكتب والاسفار . وبحسبك كتاب الكنايات للثعالبي . ومن ذلك المغالطات المعنوية وهى بسبيل من التجنيس وليست به ، وذلك أن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شىء آخر أو نقيض والنقيض أحسن موقعاً والطف مأخذاً ، وذلك مثل قول المتنبي :

يشلهمو بكل أقب نهد لفارسه على الخيل الخيار
وكل اصم يعسل جانباه على الكعبين منه دم ممار
يغادر كل ملتفت اليه ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب أيضاً هوطرف سنان الرمح فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار فى طرف السنان . وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله

اسباب الغموض فى شعر المتنبي

أما بعد فلك أن تقول بعد هذا التمهيد إن هناك ألواناً من الغموض تعد من محاسن الكلام . فليس يعاب بها الشاعر إذ هى من بنية الشعر العربى ومقوماته . وأظن أنه لا يخلو منها منظوم فى أى لغة من اللغات ، بلى ولا يخلو منها منثور . وعدنا اياها من ألوان الغموض إنما هو تجوز وتوسع والا فهى كما قلنا من محسنات الكلام ودلائل على براعة الشاعر وصدقه ، والجهل بدقائقها جهل بالشعر ومآزقه الضنكة المتلاحمة . على أن المتنبي وان كان فى حقيقته مطبوعاً إلا أنه كسائر الشعراء الفحول يضطر الى الصنعة فى بعض الاحيان شأن الفنانين فى كل فن وحرفة ، فليس يؤاخذ الفنان بذلك ولا هو مما يغتمز فيه ، اللهم إلا فى الندرة وحين يجعل الصنعة وكده وديدنه . أما الغموض الحقيقى الذى أوردنا من ألوانه وأمثلته ما أوردنا فلك أن تقول إن المتفقد لشعر المتنبي المتتبع لظروفه وملابساته يتجلى له ان هذا اللون من الغموض كان يعرو شعره فى حالات تكاد تشفع له ، فانك ترى هذا الغموض أكثر ما يكون فى صباه وأوائل شعره . ويظهر أن مثله الاعلى فى أول أمره كان شعراء الصنعة أمثال مسلم بن الوليد وأبى تمام ، فكان يقفو أثرهما ويحتذى على طريقتهما فيحتفل ويتنطس فيغمض

وكذلك تراه يحتشد ويبلغ أقصى مجهوده إذا هومدح مثل ابن العميد وهو من هو أدباً وفضلا وجهبذة واستاذية حتى ان له على المتنبي مآخذ . وكذلك إذا هو مدح سيف الدولة لاول اتصاله به والشعراء متوافرون على بابه وسيف الدولة نفسه من الادب والشعر بمكان . وتراه كذلك إذا هو رجز ــ قال رجزاً ــ كانه يحاول ان يطول رؤبة والعجاج ويغبر فى وجوههما . فتأتى أراجيزه حافلة بكل غريب غليظ ممن فى اليعربية . هذا ومما يجمل ان يلحظ هنا أن عصر المتنبي كان شأن اللغة فيه غير شأنها اليوم وأن البيئة التى نشأ فى احضانها ادباء ذلك العصر هي غير بيئتنا . وهذا أبوالطيب تراه نشأ فى البادية وتلقى اللغة من الاعراب الخلص ، ثم ظهر فى بيئة هي الكوفة ــ غاصة بالرواة وعلماء اللغة وأساطين البيان ، وهو رجل بطبيعته طموح بعيد مرتقى الهمة ، أفتراه ونشأته هذه النشأة وبيئته هــذه البيئة وطموحه هذا الطموح لا يحتفل فى شعره كل الاحتفال ويأتى بالغريب الوحشى وبالتراكيب الغريبة فى بعض الاوقات وبالمعانى الدقاق والتوليد العجيب الدقيق ؟

وإذا ما عرفت هذا وتفطنت اليه تبين لك ان ليس هناك ما يصح أن يسمى تعمداً للغموض . وانما هو الاحتفال والاحتشاد واستنباط القريحة لحوافز نفسية وانفعالات طارئة ، وظروف واعتبارات عارضة . وانما هو الطراز الأول من الشعر تظاهر على انتاجه عصر غير عصرنا ولغة تكاد تتناكر مع لغتنا كما تتناكر لغة شاكسبير مع لغة هذا الجيل من الانجليز لا يدرك دقائقها الا الافراد أوتوا من الوقت والاستعداد ما يجلدهم على معاناتها ، ودراسة آدابها وآلاتها . وانما هو المثل الاعلى من المعانى الدقاق لا يلهمه إلا مثل المتنبي فى شاعريته وعبقريته وتوليده العجيب . ذلك التوليد الذى هو سر من اسرار شاعريته

رأى الاستاذ نقولا الحداد

« . . كان يعتمد على قدرته في التخيل لا على وحي ربة الشعر فجاء شعره مجرد اغراق في الخيال ، وغلو في التصور ــ الامر الذي اقتضى أن يعجز عن ابراز الصورة التي تمثلت في ذهنه ، فرقع الثوب ترقيعاً للمعنى الذي أراد فقبح الثوب ، وانطمس المعنى . . »

لا جدال فى أن المتنبي أحد كبار الشعراء المعدودين . وقد لا يعذل من يعــده أعلاهم كعباً . ويمتاز شعره بما فيه من سمو الخيال الذى لا يكاد يطاول ، وابتكار المعانى التى ترى كانها مختلقة من العدم ، واختراع الصور الفنية التى تهتز لها النفس اعجاباً ، والابداع فى ابراز المعانى التجريدية فى ذاتيات حسية ، إلى غير ذلك من المزايا التى تدل على ذكاء باهر وفكر ثاقب، بحيث يظن أنه لوصرفه القدر الى التفكير العلمى أو الفلسفى لاصاب منه منزلة فى عصره مثلما أصاب من المنزلة فى الشعر . لذلك خلد شعره وسيبقى خالداً . والى الآن لم يفقه شعر فى اسلوب الشعر القديم ، وان كان فى

أسلوب الشعر العصرى المضارع له فى المنزلة ما يستحب أكثر منه لأنه أقرب فناً الى القلب

ولو عاش المتنبي فى هذا العصر فى بيئة المدنية الحاضرة وتحلى عقله بمعارفها العامة لبرز بلا شك فى الشعر العصرى وكان شعره فنياً أكثر منه فى ديوانه . أقول هذا لأن العصر الطويل الذى نشط فيه الشعر العربى وكان نصيب المتنبي أن يعيش فى رده منه كانت مناهج الشعر فيه تبعده عن روح الفن التى نعنيها فى هــذا العصر والتى نحسبها ينبوع الجمال . فان معظم مواضع شعره مدح الملوك وتمجيد كرمهم وسؤددهم وبلائهم فى الحروب وما إلى هذا مما يقتضى التفنن فى تصوير الطعن والضرب والفتك والدم والنقع والاذلال والأسر وما يستلزمه من ذكر الجيوش والخيل والنياق والفلوات والبوادى ،الى آخر ماهنالك من ظاهرات الهمجية والاغضاء عن نعماء المدنية ومحاسنها وما فيها من جمال وفن جميل . وإذا اعتبرنا الشعر فناً جميلا أو هو فى مقدمة الفنون الجميلة فاجادة المتنبي فى الابداع والابتكار فى تلك المواضيع يعد معجزة . ولكن مهما بلغت الاجادة من السمو بقى الفن الجميل ضئيلا فيها

لذلك لايستطيع المتنبي ولا غيره من منافسيه فى هذا المنهج المجافى للفن الجميل الا أن يتعمل الابداع الشعرى تعملا ويعنت الذهن فيه اعناتاً . ولا يستطيع ان يستلهم الروح والقلب فى تصوير الجمال وابراز الصور العقلية الجميلة ، ولا أن يلجأ فى هذا الاستلهام الى الطبيعة أم الجمال ومصدر الوحى الفنى . فتوفق المتنبي الى الابداع العجيب والابتكار الغريب بالرغم من بعده عن دار الفن يعد ، وايم الحق ، معجزة

ومنهج المتنبي هــذا فى شعره كان يقضى عليه أن يقول غير ما يعتقد ، ويصور غير ما يحس . ويحبب بغير ما يحب . ويجمل غير ما يستحسن . فكيف يستطيع ان يكون فناناً بحتاً إذا كان يمتدح ممدوحاً لا محمدة له فى يقينه إلا العطاء ، أو اذا كان ينعته بشرف ولاشرف له فى رأيه الابتقربيه اليه ؟ وكيف يمكن ان يكون شعره من قلبه إذا كان يقول لكافور الزنجى مثلا حين يمدحه :

انت الحبيب ولكننى أعوذ به   من ان أكون حبيبا غير محبوب

ثم متى انقلب الى هجوه يقول . وقد نظر الى شقوق فى رجليه :

وتعجبنى رجلاك فى النعل اننى   رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا

فشاعر كالمتنبي يندر ان يشعر بما يشعر به أو انه يشعر بما لا يشعر به . ولا يستطيع ان يبدع فى هذه الحال الا اذا استكد ذهنه فى اختلاق الصور الشعرية لذلك كان يعتمد على قدرته النادرة فى التخيل لا على وحى ربة الشعر الجميل . فجاء شعره مجرد اغراق فى الخيال وغلو فى التصوير ، الامر الذى اقتضى فى كثير من المواقف ان يعجز عن ابراز الصورة التى تمثلت فى ذهنه لانه لم يجد فى اللفظ بدناً كاملا لها ، ولا فى سعة العروض كساء واسعاً تحتويه . فرقع الثوب ترقيعا ضيقا للمعنى الذى أراد . فقبح الثوب وانطمس المعنى

هذا هو سر الابهام فى كثير من أبياته

لذلك لا تفهم شعر المتنبي بلا شرح . ومتى فهمته من الشرح رأيت ان صيغة الشرح لبعض الابيات تختلف عن صيغة النظم . وتلاحظ ان الشرح المنثور أليق للمعنى من الشعر المنظوم . وفى كثير من الابيات المبهمة لا تدرك المقصود حتى بعد تفسير الالفاظ . وحتى حيث أردف الشارح تفسيرها بشرح المراد من البيت يبقى المعنى غامضاً أو غير ذى شأن . ولذلك ترى ان الشارح لم يحصل المعنى الا بالاعتماد على مختلف القرائن. ولهذا اختلف الشراح فى تفسير كثير من الابيات لشدة ابهامها وغموضها . وربما فسروا بيتا بمعنى لم يرده المتنبي وبقى مراده الذى جال فى ذهنه دفينا معه

ومن أمثلة ذلك قوله :

جللا كما بى فليك التبريح   أغذاء ذا الرشأ الاغن الشيح

ومعنى الشطر الاول واضح. وهو فليكن التبريح فى الهوى جللا كما هو بى . وتقديم المتأخر فيه من ضروب البلاغة . ولكن الشطر الثانى يقتضى تأويله اعنات فكر ، لان الصلة اللفظية بينه وبين الصدر مفقودة بتاتاً اذا صح تفسيره هكذا : أتظنون ان غذاء هذا الرشأ كعادة مثله من غزلان الصحراء ؟ لا . بل ان غذاءه من قلب عاشقه ولهذا ينحله ويمرضه . فهو الذى يورثه هذا التبريح . فانظر كم اقتضت الصلة بين الصدر والعجز من الكلام الذى استقام به المعنى وليس فى البيت منه شيء ، ومثله قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

قال اليازجي فى تفسيره : وفاؤكما مبتدأ خبره كالربع . وأشجاه تفضيل من شجاه الامر إذا أحزنه ، وطاسمه دارسه ، والجملة حال من الربع . وتسعدا بمعنى تساعدا والباء متعلقة بوفاء . وهو من الضرورات القبيحة لان الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه . وساجمه ساكبه

فليتأمل القارىء هذا البيت بعد ما تقدم من تفسير ألفاظه وتركيبه. وليرَ ماذا يستطيع أن يحصل منه ؟ وهل يستطيع أن يحصل بسهولة هـذا المعنى الذى حصله الشارح وهو : « يخاطب صاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند ربع الاحبة . يقول : وفاؤكما بمساعدتى كهذا الربع . فان الربع كلما درس كان ادعى الى الحزن . وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلت مساعدتكما لى بالبكاء اشتد حزنى لفقد من أتأسى به . وقوله : والدمع أشفاه ساجمه . بيان لعذره فى البكاء وحجة على صاحبيه بأنهما خاليان عما هو فيه من الحزن . فهل يمكن أن هذه المعانى المتسلسلة تسلسل العلل والمعلولات ان تدمج فى تسع كلمات . وبعد هذا الشرح الطويل أين تجد الفن الشعرى فى هذه المعانى ؟ أو أين الصورة الجميلة التى يعرضها المتنبي فى هذا البيت ؟

وفى نفس القصيدة :

قفى تغرم الاولى من اللحظ مهجتى   بثانيــة والمتلف الشىء غارمه

يعنى انه نظر اليها نظرة أتلفت مهجته . فيقول لها قفى لانظرك نظرة ثانية ترد مهجتى وتحييها فان فعلت كانت النظرة الثانية غرماً لما اتلفته الاولى . فانظر هل يبدر هــذا المعنى إلى الذهن من مجرد الاطلاع على البيت ؟

وكذلك قوله فى وصف جنود سيف الدولة :

تحمل اغمادها الفداء لهم   فانتقدوا الضرب كالاخاديد

قال الشارح : اغمادها اى اغماد سيوفها لحذف المضاف وانتقد الدراهم قبضها . والاخاديد جمع اخدود وهو الشق المستطيل فى الارض . والظرف حال من الضرب . فانظر الصورة التى رسمها المتنبي فى هذا البيت . هل هى فى ظاهر اللوحة أم هى مخبأة فى باطنها . فهو يعنى أنهم حملوا الى الاعداء السيوف فى الاغماد وجعلوها فداء لأبى وائل لأنهم استنقذوه بها . ولما جعل السيوف فداء جعل الضرب بها مقبوضاً كما تقبض الاموال التى تدفع عادة فى الفداء . أى فنالتهم بها جراح واسعة كالاخاديد . وأى صورة تقوم فى ذهنك من تشبيه الضرب بالسيوف فى ابدان الاعداء بالنقود التى تقبض فدية ؟ ما أغمض وجه الشبه هنا !

ومن أمثلة الغموض التى يختلف فى تأويل المراد منها قوله :

ضروب وما بين الحسامين ضيق   بصير وما بين الشجاعين مظلم

أى أنه حاذق بأمر الحرب يضرب قرنه وقد اشتد الزحام حوله حتى لا يجد السيف مساغاً ولا يخطىء مقتله . وقد أظلم الجو بينهما من شدة الغبار حتى لا يبصر القرن قرنه . فتأمل ما بين المعنى واللفظ من تباعد الدلالة !

وكذلك قوله :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم   دع ما نراك ضعفت عن اخفائه

أى ان اللحاة (اللوام) يقولون له : دع هذا الحب الذى لا تطيق كتمانه . فيعجب الوشاة من قولهم هذا لانه إذا غلب عليه الحب حتى يعجز عن كتمانه فهو عن تركه أعجز . والابهام هــنا فى عجب الوشاة الذى لا يظهر له سبب فى البيت . ولذلك يضطر الشارح أن يتفلسف فى سببه الذى ليس له فى البيت لفظ يدل عليه . وانما تؤخذ الدلالة من تقاليد العرب فى الحب ومنها أن العاشق يكتم عشقه

يكفى ما تقدم من نماذج الابهام فى شعر المتنبي ، وفيها الدلالة الكافية على أنه بعيد الغور فى التصور والتخيل وابتداع المعانى ولكنه كان فى كثير من الاحوال يعجز عن أن يصوغ تمثالا كاملا للمعنى الذى يبتدعه بحكم العروض عليه وزناً وقافية . فيضطر الى اغفال شىء من اللفظ اللازم

لاستتمام قالب المنى، والى التقديم والتأخير الى حد الاخلال بقوانين البلاغة وقواعد اللغة أحياناً كأنه يستشفع عبقريته فى تسويغ هذا الاخلال · ومن أمثلة هـذا ارتكابه « لغة يتعاقبون » أى ذكر الفاعل وضميره معا بعد الفعل كقوله :

ورمى وما رمتا يداه فصابنى سهم يعـذب والسهام تريح

فضمير المثنى فى رمتا فضلة منكرة قبل ذكر الفاعل « يداه » ومثله فى نفس القصيدة :

نفديك من سيل اذا سئل الندى هول اذا اختلطا دم ومسيح

فالالف الاخيرة فى اختلطا فضلة مع الفاعلين المتعاطفين . ناهيك عن اعتراض الشرط بين النعت والمنعوت ـ سيل هول

ومن هذا القبيل فك الادغام فى قوله :

ولا يبرم الامر الذى هو حالل ولا يحلل الامر الذى هو مبرم

فهو مستقبح وان جاز لضرورة الوزن . وله كثير من أمثال هذه المتجوزات المكروهة ولا محل لسردها . ولا يندر أن يضحى بصحة التعبير اللغوى انقياداً لضرورة الوزن كقوله :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها وليتنى عشت منها بالذى فضلا

ومقتضى المعنى الواضح أن يقول : وليتنى أعيش

وهناك كثير من الابيات التى يشذ فيها عن أصول الفصاحة والبلاغة ويرتكب فيهـا التقديم والتأخير والحذف الخ حيث لا تجوز هذه المذكورات فيظهر البيت بها كركام بناء متهدم وقد تراكمت بعض انقاضه على بعض . كقوله :

فتى ألف جزء رأيه فى زمانه أقل جزىء بعضه الرأى أجمع

قال اليازجى : « فى هذا البيت من التقديم والتأخير والحذف والابهام مالا يباح فى أساليب الكلام حتى اذا حللت تركيبه النحوى وجدته باقياً على غموضه . . وجل ما يتحصل منه ان ممدوحه فتى لو اعتبر رأيه فى أحوال زمانه الف جزء لكان أقل جزء منها يعادل كل ماعند الناس من الرأى » . وصفوة المعنى ان الممدوح أعلم الناس باحوال الدهر ،فترى ان هذا المعنى تافه لايستحق هذه الحذلقة وذلك التعسف فى النظم

وكان اذا حلق فى فضاء التخيل والتصور يترك وراءه حسن الذوق فيرد فى نظمه من السماجة اللفظية ما ينافى لطف الخيال ، ومن خساسة الاستعارة والتشبيه ما يقابح سمو التصور كقوله فى قصيدته المشهورة : « من الجآذر فى زى الاعاريب ؟ »

لا تجزنى بضنى بى بعدها بقر تجزى دموعى مسكوباً بمسكوب

الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقر الوحشية تشبه بها النساء لحسن عيونها . وهو وجه الشبه

الوحيد بين الطرفين وفيما سواه بينهما تباين عظيم كما هو معلوم . ولا يخفى مافى ذكر البقر فى صدر البيت من فساد الذوق . وما اكتفى بذلك بل ضرب على نفس النغمة فى بيتين آخرين فى نفس القصيدة احدهما :

قد وافقوا الوحش فى سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب

ولما أراد أن يرفع من شأن الآرام التى تشبه بها الحسان لجمال عيونها قابلها بالمعيز فى البيت الآخر :

أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة فى الحسن والطيب

وهو يشبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام . ولا أدرى ان كان احد من الناس يحبذ هذا الذوق !

ومن هذا القبيل قوله :

وأشرف من عيشهم موته وانفع من وجدهم عدمه

يريد ان موت ممدوحه أشرف من حياتهم (اى الملوك الذين يفاضله عليهم) فأى ذوق هذا فى أن يجعل موت ممدوحه وفقره موضوعاً للمفاضلة ؟

نكتفى بما تقدم ونرشد القارىء إلى تذييل الشيخ ابراهيم اليازجى لشرح أبيه الشيخ ناصيف لديوان المتنبي . وهو شرح ممتع قيم وقد أورد فى هذا التذييل طائفة من الابيات المبهمة التى اختلف الشراح فى شرحها وحل رموزها

---

* قيل للمتنبي : « على من تنبأت ؟» قال : « على الشعراء » فقيل له : « لكل نبي معجزة فما هى معجزتك ؟ » . قال معجزتى هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على المرء ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

* وصحب المتنبي سيف الدولة فى غزوة العشاء التى لم ينج منها إلا سيف الدولة وستة معه أحدهم المتنبي ، وأخذت الروم عليهم الطرق ، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وفرق الصفوف . وبينما المتنبي يسوق فرسه ويشق الصفوف مع سيف الدولة اعتلقت بعمامته أغصان شجر معروف بام غيلان ، فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة وتخيل المتنبى ان الروم قد ظفرت به ، فكان يصيح : الامان ياعلج ، فهتف به سيف الدولة : « اى علج ؟ هذه شجرة علقت بعمامتك » فود أن الارض غيبته

عصر المتنبي

عصر اضطراب وفتن

كانت الكوفة مسقط رأس المتنبي فقد ولد فيها في أوائل القرن الرابع للهجرة، فكل كلام على عصره يجب أن يتناول جزءاً من تاريخ الدولة العباسية من الوجوه التاريخية والسياسية والعمرانية والادبية . وكان عصر المتنبي من عصور الادب الزاهرة وقد أسهب في الكتابة عنه الأدباء والمؤرخون

لم تكن حالة البلاد العربية مستقرة في ذلك العهد وقد كانت الدسائس تعمل في السر والعلن . فكانت سوريا خاضعة لمصر ومصر تابعة للخلفاء العباسيين والدولة العباسية في هم شاغل بسبب أعدائها في الداخل وفي الخارج

ولا يخفى أن الدولة العباسية في ذلك العهد كانت اكبر دول الأسلام . وكان العباسيون بعد أن استتب لهم الأمر يقربون اليهم الموالي الفرس ولاسيما أهل خراسان فاتخذوهم بطانة لهم وعهدوا اليهم في أهم شؤون الدولة ومرافقها ، حتى صار العرب يستغربون ذلك أول وهلة ويغارون كلما جاءوا مجلس الخليفة ورأوا الفرس يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة . وفي الحقيقة ان الموالي الفرس هم الذين نظموا دواوين الحكومة ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب . وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء يولون ويعزلون واذا تولاها أحدهم ولى الاعمال رجالا من أصحابه أو مريديه فاطمأنت خواطر الناس وتفرغوا لأعمالهم وتجارتهم وصناعاتهم وزراعتهم

***

وأكرم العباسيون الذميين وقربوهم واعتمدوا عليهم في كثير من شؤون الدولة حتى كان اكثر الجهابذة (أي الصيارف) من اليهود وكثير من الكتاب نصارى . بل كثيراً ما كان النصارى يقلدون ديوان الجيش وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني فيتسابق أكابر رجال الدولة الى لثم يده . وفي ذلك منتهى التسامح الديني . ومن أشهر الوزراء الذميين في ذلك العصر عيسى بن نسطوروس وكان نصرانياً . و « منشا » وكان يهودياً . دع عنك من كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من الاطباء والكتاب والتراجمة ولا سيما نصارى الشام . وقد كان لهم القدح المعلى في نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية . وكثيراً ما كان الخلفاء يستدعون الاساقفة والقسوس وغيرهم من رجال الدين

ويحاورونهم فى المسائل الدينية . على ان بعض الخلفاء كانوا ضيقى الصدور يكرهون النصارى ويضيقون عليهم

وفى ذلك العهد ظهرت طائفة الشعوبية ومبادئها تشبه من بعض الوجوه مبادىء الشيوعية فى هذا العصر . وكان الشعوبيون يقولون بمساواة الأفراد والطبقات ، ومن أقوالهم فى الرد على العرب أن النبي نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله : « المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على سواهم » وقوله فى خطبة حجة الوداع : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . وكان الشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض فى ذلك العهد إلا العرب . فاذا افتخروا بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبملوك الهند . واذا فاخروهم بالأنبياء والمرسلين ذكروا الأنبياء من آدم الى أيامهم . واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة الثعبان والاسطرلاب وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وعلومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وذكر صاحب العقد الفريد أنه بلغ من جرأة بعض أنصار الشعوبية أنهم كانوا يقولون : « ما الذى تفخر به العرب على العجم . فانما هى كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون فى حلق الأسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ؟ » واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض ونظموا المطاعن فيهم

وعلى كل فان الشعوبية ظهرت قبل عصر المتنبي بما يزيد على قرن ولكن الدعوة اليها لبثت حتى عصره والى ما بعد ذلك ، مع أن الكثيرين من كتاب العرب ومؤرخيهم تصدوا للرد على الشعوبية ومنهم ابن قتيبة فى « تفضيل العرب »

* * *

ولننظر الآن فى غير ذلك من أحوال العرب فى عصر المتنبي ونتكلم على المرأة . وكانت عادة التسرى قد شاعت فى ذلك العصر فكثرت الجوارى والسرارى وافضى ذلك الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات . وكان من نتيجة ذلك أن ذلت المرأة العربية وذهبت عزة نفسها فاحتقرها الرجل وصار ينظر اليها نظرة ازدراء ويسىء بها الظن ويعاملها بأقصى الشدة والقسوة . وأصبح الطعن فى المرأة شعار كل أديب وكاتب حتى الفوا فيها القصص والروايات لتحذير الناس من غدرها . وانتشر التسرى بين الخاصة والعامة ، وفى مقدمة الاسباب الباعثة عليه الترف . وكثيراً ما كانت السرية تلد فيتزوجها سيدها، إلا أن العرب كانت تحتقر أولاد الجوارى فى أول الأمر ولكن الاقبال على التسرى زاد بمرور الزمن حتى قيل انه كان للمتوكل العباسى نحو أربعة آلاف جارية . وقيل ان

اكثر ابناء الخلفاء كانوا من الجوارى . وكان لنصر الدولة ثلثمائة وستون جارية على عدد أيام السنة . إلا أن الفاطميين فاقوا غيرهم فى الاكثار من الجوارى فقد كان فى قصر الحاكم بأمر الله عشرة آلاف جارية وعند أخته السيدة الشريفة ست الملك ثمانيـة آلاف جارية . وزادت أثمان الجوارى قبيل عصر المتنبي وبعده على عدة آلاف من الدنانير . وفى العقد الفريد أن ثمن الجارية التى كانت تجمع بين جمال الوجه ورخامة الصوت كان يختلف من بضعة آلاف دينار الى مائة الف دينار . بل قيل ان أحد الخلفاء عرض عشرين مليون درهم (أو ما يزيد على مليون دينار) ثمناً لجارية ولم يمكنه الحصول عليها

فترى إذن أن القوم فى ذلك العصر كانوا شديدى الميل الى التسرى ينفقون فى سبيله الأموال الوفيرة . وفى الحقيقـة أن الترف فى عصر المتنبي كان قد بلغ أعلاه . إذ اكثر العباسيون من البذخ والانفاق على قصورهم ومجتمعاتهم وعلى شراء الحلى وغيرها . وكانت لهم قصور لم يعرف الغرب مثلها فى الأبهة والفخامة

ولم يمنعهم ذلك الترف من تكريم العلم والعلماء . فقد كانوا يجلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم . والأدلة على ذلك كثيرة متوافرة . وكانوا يقربون الشعراء ويجزلون لهم الأعطية ويعينون لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم . وقد يفرضون لهم أموالا يدفعونها كل سنة . على أن مقام الشاعر كان يعلو ويهبط تبعاً لمزاج الخليفة أو الأمير المقام من قبله . بل ان منهم من كان يكره الشعراء ويبعدهم . قيل ان الشعراء كانوا يخرجون أحياناً من بغداد ويجتمعون فى الشام يتذاكرون الشعر فى جو اكثر عطفاً عليهم

وكانت اكثر مجالس الأدب فى ذلك العصر مقصورة على المسائل الأدبية والعلوم اللسانية. ولما نشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء فكانوا يتباحثون فى الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفى وغير ذلك من المباحث الفلسفية المبنية على علم الكلام

وليس من السهل أن نستوفى الكلام فى هذه العجالة على جميع وجوه الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والعلمية فى عصر المتنبي . وانما نقول بوجه الايجاز ان السلطان فى ذلك العصر كان للعباسيين وكانت مصر وسوريا خاضعتين لهم وفى ذلك العصر ظهر المتنبى ونبغ وذاع أمره ومع أنه كان عراقى مسقط الرأس إلا انه نشأ وترعرع فى الشام وقضى جانباً من عمره فى مصر

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه　　وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته　　وأصبح فى ليل من الشك مظلم

(المتنبي)





« . . . وكافور هذا عبد أسود مثقوب الشفة السفلى بطين قبيح القدمين ثقيل البدن من يره يحسب أنه أمة »

المؤرخون

[رسم كاريكاتوري]